أنت أسيرتي

إيمان العمري

◆ **Author** : Iman El Emary ◆ المؤلف: إيمان العمري
◆ **Title**: You are my captive ◆ العنوان : أنت أسيرتي
◆ **First Edition**: 2013 ◆ الطبعة : الأولى 2013
◆ **Cover Design by**: Amr El Kafrawy ◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

رقم الإيداع:
٢٠١٢ / ٢١٧١٥
الترقيم الدولي : ISBN
977-6148-82-8

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No Part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

75 QASR – ALAINI ST., in Front of Dar Al-Hekma, - CAIRO – EGYPT
Tel: +202-2795-3811 Fax: 00202-2795-4633
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com
٧٥ ش القصر العيني – أمام دار الحكمة – القاهرة – جمهورية مصر العربية
ت : ٢٧٩٥ ٣٨١١ فاكس: ٢٧٩٥ ٤٦٣٣

إيمان العمري

أنت أسيرتي

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

العمري، إيمان.

أنت أسيرتي: قصص قصيرة

إيمان العمري – ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2013

208 ص، 20 سم.

رقم الإيداع 21715 / 2012

الترقيم الدولي 8 – 82 – 6148 – 977

1 – القصص القصيرة العربية

أ – العنوان

إهداء

إلي من تعلمت من سيرته معني كلمة الحق

إلي جدي الأكبر أحمد العطار

رئيس المحكمة الشرعية العليا

(١)

كانت ليلى تسير بتردد شديد، وكم فكرت في العودة، وتأجيل السفر للأسبوع القادم، لكنها في النهاية حسمت أمرها، واتجهت مباشرة إلى المطار لتستقل الطائرة المتجهة إلى الصعيد.

حاولت ليلى أن تستجمع رباط جأشها، وتهدأ من عصبيتها، فبدأت في ترتيب ما ستفعله، وما ستقوله... لكنها في كل مرة كانت تشعر بالتوتر يتملكها، فتبدأ من جديد في وضع السيناريوهات المختلفة لما ستواجهه، وما ستقوله، وما يمكن أن تفعله...

وأخيرًا وصلت الطائرة إلى الصعيد... كانت هذه هي المرة الأولى التي تذهب فيها ليلى إلى الصعيد... كانت هذه الأماكن بالنسبة لها عالمًا غامضًا مغلفًا بالقسوة، لكن لم يكن هناك مفر من الذهاب إلى هذه المنطقة البعيدة كل البعد عنها.

ليكن ما يكون فعليها أن تنتهي من مهمتها سريعًا، وتعود لتستقل الطائرة التي ستغادر عائدة للقاهرة في المساء.

كانت الرهبة تملأ قلب ليلى، وهي تغادر المطار، وتحاول البحث عن أي وسيلة مواصلات لتصل إلى القرية التي تقصدها، لم يكن الأمر هينًا خاصة أن القرية تبعد كثيرًا عن المطار، وتقع في المنيا، وهي المحافظة

السابقة لمحافظة أسيوط التي بها المطار... كم أنبت ليلى نفسها على أنها استقلت طائرة، واضطرت للتنقل بين أكثر من وسيلة عجيبة للمواصلات، لكنها في النهاية وصلت إلى المكان الذي كانت تقصده.

كان بيتًا كبيرًا تحيطه حديقة جعلته يظهر كأنه قصر منيف، بل كان هو كذلك.... وقفت ليلى أمام البيت الكبير، وقلبها يخفق بشدة، وكأنه يعزف لحنًا لمشهد رعب، لكن لماذا كل هذا الخوف ؟! فكل ما عليها القيام به لن يستغرق سوى نصف ساعة وما عليها أن تفكر فيه الآن هو كيف ستقضي الوقت حتى يأتي موعد طائرة العودة وعبثا حاولت أن تقنع نفسها بأن الأمر بسيط فقد ظل قلبها يخفق وأحست بالبرودة تسري في عروقها وكأن الدماء قد تجمدت في شرايين جسدها.

كانت ليلي تقدم خطوه وتأخر الأخرى وترفع يدها ثم تعود تبعدها ثانية وأخيرا دقت علي بوابة البيت الكبير واستأذنت الحارس في الدخول قادها الحارس عبر الحديقة الفسيحة وأوصلها إلى الحجرة الملحقة بالدار والمخصصة للضيوف.

كانت الحجرة تدل علي الفخامة والوقار تأملت ليلي كل ركن بها وتفحصت ما بها من أثاث تقليدي لم يعد له وجود إلا في عدد قليل جدا من منازل القاهرة التي لا يزال أصحابها يتمسكون بالماضي.

أحست ليلي بالوحشة حتى أنها قررت مغادرة المكان وهمت بذلك لكن انفتح الباب ودلف منه صاحب الدار.

كان رجلا في الأربعين من عمره عريض المنكبين طويل القامة تطفو على وجهه كل سمات المهابة بشرته تميل إلى السمرة المشبعة بالاحمرار

ورغم انه اقبل مرحبا بليلي فقد ازدادت توترا عندما وجدت نفسها وجها لوجه أمامه.....ماذا عليها أن تفعل الآن ؟!

كانت تشعر بالخجل من صوت دقات قلبها العالي وتمنت لو تملك القدرة علي التحكم في خفقانه.

مد صاحب الدار يده لمصافحة ليلي ولم يظهر علي وجهه أي علامات استغراب أو تعجب من هذه الزائرة الغريبة....كانت لديه قدره عجيبة علي التحكم في ملامح وجهه أم ترى كان وجهه الجامد القاسي الملامح يأبى دائما أن ترتسم عليه أي ملامح وإن كانت عيناه تشيان بما يجيش في نفسه فأطلت منهما كل التساؤلات التي أجبرت ليلي علي البدء مباشرة في مهمتها فأفصحت عن شخصيتها.

_ ليلي أحمد القاضي.

تراجع صاحب الدار قليلا وانخفض صوته فظهرت علامات الدهشة علي نبرات صوته.

_ أهلا...البقية في حياتك...

نظرت ليلي إليه والدهشة تملأها فأشار لها بالجلوس وبعد فترة صمت قليلة شعرت خلالها ببعض الارتياح، فمعرفته بما حدث قد قصر عليها المسافة وما عليها سوي البدء مباشرة دون مقدمات.

_واضح انك عارف موضوع وفاة عمك يعني وفرت عليا مجهود كبير في شرح المقدمات نظر صاحب الدار إليها بوجهه الجامد فعادت لارتباكها وأخذت تحرك يديها وهي تتحدث بنبرات صوت منخفضة لكنها لم تخلو من العصبية.

_ أنا جيت هنا عشان موضوع الميراث... أنا...

قاطعها بصوت هادئ ووقور:

_ أولا تحبي تشربي إيه ؟

_ مفيش داعي أنا عايزة أخلَّص كل حاجة والحق الطيارة.

لم يلتفت إلى حديثها وتركها ونادى علي الخدم وأمرهم بإحضار واجب الضيافة كما دعا كل من في الدار للقدوم للترحيب بالزائرة.

تجمع أهل الدار أو بمعنى آخر وجدت ليلى مجموعة من النساء يحطن بها ويتفحصنها من كل اتجاه لم تدر ليلي ماذا تفعل أو تقول وقفت ليلى صامتة لا تتحرك..... كانت ليلى ترتدي ملابس الحداد ورغم ما تضفيه عليها من كآبة فقد ظهرت بشكل أنيق وبدت عليها كل علامات الحسن والجمال فهي تتمتع بقوام ممشوق زاده جمالا ما ترتديه من جاكت وبنطلون أما وجهها فقد كان كالبدر المنير وسط الليل الأسود المسمى شعرها وباقي ملامحها تجمع الرقة والجمال معا مما أثار غيرة نساء الدار وقد ظهر ذلك في نظراتهن وانعكس علي نبرات صوتهن فبدأن الهجوم واخترن كلمات تحمل المعاني الكثيرة والتي أغلبها مؤلمة بدأت كبيرتهم الحديث.

_ إحنا كان نفسنا نحضر العزا لكن انتم معملتوش حاجة والنعي ماكنش فيه عنوان بس رقم صندوق البريد عموما العمدة ابننا قام بالواجب وعمل عزا كبير لعمه وعمل أربعين كمان.

أراد العمدة أن يلطف الجو وتحدث برقه.

_كان نفسنا تشرفونا إنت والست والدتك لكن للأسف ماعرفناش

نتصل بيكم مانتم عزِّلتم من مصر الجديدة....وتلفون عمي قفلتوه...

اندهشت ليلى عندما تحدث العمدة عن والدتها وعن موضوع انتقالهم من مسكنهم القديم وقبل أن تنطق بكلمة بادرتها الابنة الكبرى.

_ هي والدتك معاندهاش موضوع العزا ؟!

ثم استمرت سهام الكلمات والتعليقات التي أطلقتها النساء حول والدة ليلى والتي وصفوها (بالخواجاية)

لم تستطع ليلى الرد عليهن بل غرقت في بحار الدهشة و الحيرة ولم ينقذها سوى قدوم أحد الخفراء الذي كان يحمل نذير سوء بمرض عدد كبير من العجول وعجزهم عن الوصول إلى الطبيب البيطري، لم تتردد ليلي لحظة وتصرفت بسرعة أذهلت الحاضرين فقد تحولت فجأة من المرأة الوقور إلى فتاة عملية، فأخرجت إحدى الشرائط من حقيبتها، وعكفت بها شعرها وخلعت الجاكت الذي ترتديه وشمرت أكمام قميصها وانطلقت مع الخفير حاملة حقيبة أوراقها.

_ تعالى معايا بسرعة على الزريبة.

لم يدر العمدة ولا الحاضرين ماذا تفعل هذه الفتاة لكن العمدة سار خلفها مسرعا. وفي الحظيرة كانت ليلى تفحص العجول وتسأل عن كل كبيرة وصغيرة حتى تمكنت من إعطائهم الدواء المناسب، استمرت ليلى فترة طويلة تعالج العجول، والعمدة يتابعها عن كثب وهو مندهش من تلك الزائرة الغريبة وسرعان ما تحولت دهشته إلى إعجاب لكن كان هناك خيط رفيع من الخوف من جرأتها المفرطة فكيف لامرأة غريبة أن تقتحم حظيرتهم بمثل هذه الجرأة وتقف وسط الفلاحين ؟!

أعطت ليلى الفلاحين التعليمات اللازمة وهي تعيد أدواتها في حقيبة الأوراق وتلفتت بعد ذلك باحثةً عن شيء ما فأسرع العمدة إليها.

_ في حاجة ؟

_أبدا فين شنطة إيدي والجاكت..... آه انا سبتهم في البيت... طب ياريت نرجع...آه إحنا لسه ماتكلمناش في موضوع الميراث.

نظرت ليلي في ساعتها.

_آه الوقت مر والطيارة....

قاطعها العمدة في هدوء

_ليلة إنتي متوترة ليه.

اندهشت ليلى من إدراكه لما تشعر به ونظرت إليه في حيرة... فهم العمدة نظراتها فرد عليها وهو يبتسم.

_ إحنا نرجع البيت دلوقتي لازم تغيري هدومك إنتي من ساعات في الزريبة وبعدين الغدا على السفرة.... والمهم إنتي عالجتي العجول إزاي.

كان سؤاله رغم وضوحه فرصة لليلي حتى تجد لنفسها متسعا للتنفس. كان العمدة يعلم أن ليلى طبيبة بيطرية وكانت إجابتها مجرد وسيلة لفتح باب الحديث عن نفسها.

سار العمدة بجوار ليلى عائدين إلى المنزل وهي تحدثه عن نفسها ليتعرف على ابنة عمه الغامضة التي جاءت من وراء الغيوم.

_ أنا دكتورة بيطرية وعلى فكرة أنا متخصصة في الماشية فالدكتوراه بتاعتي عن تسمين الأبقار.

_ برافو.

قالها بأسلوب يخفي الكثير من السخرية جعلتها تشعر بالغضب من هذا الصعيدي المتجهم الذي يسخر من قدرتها العلمية ففكت شعرها بعصبية وعادت لتنفيذ مهمتها وتحدثت بحدة

_ أنا معنديش وقت وجيت النهارده علشان أنهي كل حاجة بخصوص الميراث.

_ إيه يا بنت عمي حناقش أمورنا وإحنا جنب الزريبة.

لم تستطع ليلى الرد وامتثلت لنظرات عينيه الحادة وسارت بجواره لا تنطق بكلمة، وأخيرا سألته :

_ إنت اسمك خالد صح؟

أطلق خالد ضحكة ساخرة

_ فعلا ونعمة القرايب هو انتي مش متأكدة من اسمي.

أحرجها تعليقه فعادت لصمتها حتى وصلت إلى المنزل وهناك وجدت كل شيء معد. نفذت ليلي كل أوامر خالد وصعدت إلى الغرفة المعدة لها وأخذت حماما دافئ ثم بدلت ثيابها وهبطت إلى البهو مرتدية جلبابا صعيديا استقبلها خالد مرحبا وكأنه يراها لأول مره ثم بدأ في تعريفها بأفراد الأسرة الجالسين علي مائدة الطعام.

_ جدتي عزيزة...أمي عواطف... أخواتي البنات..سوسن...هناء... سوزان.

_ أهلا وسهلا.

_ أنا عارف إنك شفتيهم قبل كده لكن زيادة الخير خيرين.

كانت ليلى تشعر بالإحراج، لكن خالد حاول بكل الطرق إذابة جبال الجليد، وتحدث بطلاقة عن أسرته، وعن ليلى هي الأخرى...

-إنتم عارفين ليلة طلعت دكتورة شاطرة قوي...

نظرت الجدة لها

-هي أمك الخواجاية عارفة إنك حتباتي عندنا ؟

ردت عليها ليلى بحدة

-أنا مش حبات... فعلًا الطيارة فاتتني لكن أنا حاخد القطر، ده حتى أحسن، وأسهل.

وبنفس الحدة ردت الجدة عليها

-ياه هي أمك الخواجاية موصياكي.

اندفعت الدماء في عروق ليلى، وأحست بكم المهانة التي تتعرض لها من نساء الدار، فتملكها الغضب، وتحدثت بصوت حاد، ومرتفع قليلًا

-أستاذ خالد ممكن نناقش الموضوع إللي أنا جيت عشانه...

نظر لها خالد بعتاب، وأكمل تناول طعامه... امتثلت ليلى لإرادته، وأكملت تناول الطعام، وهي صامتة، وكذلك فعل بقية النساء اللائي امتثلن لأوامر خالد التي أعلنتها عيناه.

كان الوقت يمر بطيئًا، وثقيلًا على ليلى حتى أنهت الأسرة تناول الطعام، وترك الجميع المائدة، وتجمعوا في البهو... استجمعت ليلى شجاعتها لمواجهة خالد

-أستاذ خالد...

قاطعها خالد بسخرية

-أستاذ ؟! أنا ابن عمك يا ليلة.

ردت ليلى بخجل

-آسفة... خالد يا ابن عمي ممكن نناقش موضوع الميراث.

اندفعت سوسن، وتحدثت بحدة

-ميراث إيه عمي صفى كل أملاكه، وأخد حقه.

نظر لها خالد بحدة، فغادرت المكان هي، وكل النساء

-أمرك يا ليلة.

اندهشت ليلى من كلام سوسن، وأدركت سوء الفهم الذي وقع بينهم منذ الصباح...

-آه إنتم فاكرين... لا..أنا

ابتسم خالد لها حتى تهدأ قليلًا

-تحبي تشربي شاي، ولا قهوة ؟

-أحب أوضح وجهة نظري...أنا جيت هنا مش عشان أخد ميراثي أنا جيت عشان أديلك ميراثك.

تعجب خالد مما قالته ليلى، ولأول مرة تبدلت ملامح وجهه الجامدة، وعرفت ملمحًا إنسانيًا بدلًا من قناع الحجر الفرعوني الذي يرتديه دائمًا

-ميراثي ؟؟؟!!!

-طبعًا ما إنت لك النص في كل حاجة سابها بابا... إنت النص، وأنا النص..

استمرت علامات التعجب ترسم ملامح وجه خالد، لكن ليلى لم تنتبه لذلك، فقد كان كل همها أن تنهي مهمتها سريعًا، فأخرجت من حقيبتها كل الأوراق الخاصة بالميراث، والمتمثلة في فيلا بالمعادي تسكن ليلى فيها، ومزرعة بالفيوم، ثم أخرجت ليلى مبلغين من المال، ووضعتهما على المائدة أمام خالد

-ده نصيبك من رصيد بابا في البنك سحبته بعد الوفاة كان بينا حساب مشترك، ما أنا كنت المتصرفة في كل فلوس بابا خاصة في السنة الأخيرة لما اشتد عليه المرض.... والمبلغ التاني نصيبك من إيراد المزرعة عن فترة الشهور الأخيرة من بعد الوفاة.

بدأ صوت ليلى يختنق قليلاً بالبكاء، لكنها ابتلعت دموعها، وواصلت الحديث عن التركة، وكيف أن كل شيء سليم، وليس على خالد سوى أن يتسلم أوراق ممتلكاته...

-المزرعة دي مشروعي في الأساس، وأنا بأديرها من وقت ما اشتراها بابا، وكل الأوراق، والحسابات عندي لو عايز تعرف أي حاجة.

تعجب خالد من هذه الفتاة التي تتكبد عناء السفر كل هذه المسافة لتعطي ميراثًا لأصحابه الذين يجهلون عنه كل شيء... ربما كان لديها هدف ما أو مصلحة وراء ذلك

-هو إنت عايزة تبيعي حاجة ؟

أثار سؤال خالد ليلى بشدة... ماذا يظنها هذا الصعيدي المتجهم؟! وما هذا الأسلوب الذي يحدثها به؟!

-بيع إيه يا خالد أنا جيت أديلك ميراثك...هو مش ده شرع ربنا ؟!

-طبعًا شرع ربنا لكن....

لم يكمل خالد جملته، وظل يتفحص هذه الزائرة العجيبة التي جاءت من المجهول لتقدم له ميراثًا عجيبًا.... لقد مضى على وفاة عمه عدة أشهر، فلماذا ظلت كل هذه الفترة صامتة، ولماذا جاءت الآن... وإن كانت كل أموال والدها في حسابهما المشترك، فلماذا تقدم له كل هذه الأموال على طبق من ذهب، والأهم إن كانت هي من تدير المزرعة، وهذا هو مشروع عمرها، فهل تتنازل عن نصفه بكل هذه السهولة .

أربكت نظرات خالد ليلى، فأبعدت عينيها عنه، وعادت إلى الحديث عن الميراث... أمسك خالد بالأوراق، وهو شارد الذهن... أدركت ليلى شروده

-خالد فيه حاجة ؟

-لا...لا...

-الأوراق كلها معاك، وأنا لازم أرجع القاهرة.

لم يلتفت خالد إلى كلامها، وظل شارد الذهن، ثم وجه دفة الأمور إلى ما يريد، فسدّ كل طرق العودة أمامها، فلم تجد مفرًّا من قضاء ليلتها في بيت عمها.. كانت ليلى تشعر بالضيق من اضطرارها للمبيت في هذا البيت، لكن لم يكن أمامها بديل آخر.

كان يوم ليلى طويل، وقد بلغ منها التعب مبلغًا، فلم تهتم بشكل الحجرة التي أعدت لها، وألقت بنفسها على السرير، ولأول مرة منذ شهور طويلة مضت تغرق ليلى في نوم عميق هادئ.

(٢)

استيقظت ليلى من نومها مبكرًا، وهي تشعر بالنشاط يسري في كل جسدها... جلست على السرير، وأخذت تتفحص كل أرجاء الحجرة التي قضت فيها ليلتها البارحة... كانت الحجرة مثل باقي القصر كل ما فيها فخم، وأصيل، ويدل على الثراء.

تذكرت ليلى ما قدمته أمس لخالد من أموال، فتبسمت ساخرة، فنصيب خالد في الميراث كله لا يشكل، ولو جزء بسيط أمام ما رأته من أملاك عائلة خالد... تمتمت ليلى:

-بسم الله ما شاء الله.

عاتبت ليلى نفسها بشدة متسائلة

«هل جئت لأعطي خالد حقه الذي شرعه الله أم لأحقد عليه»

لكن ما أثار دهشتها هو كيف يكون عمها واسع الثراء بهذا الشكل بالمقارنة بما يملكه والدها ألم يكن ميراثهما متساويًا

عادت ليلى إلى تأنيب نفسها، فما لها وميراث والدها، وعمها... الكل الآن في عداد الأموات، ولم يبق غير حق خالد، وها هي قد سلمته إياه، فلتعود إلى ديارها، فأمامها أعمال كثيرة أخرى...

بدلت ليلى ملابسها مسرعة، وهبطت الدرج لترى العائلة كاملة مجتمعة في البهو، ومعها عدد لا بأس من الأطفال كما كانت هناك امرأة غريبة عرفت

أنها خالتهم حسنات والدة حسان زوج هناء...كانت حسنات على عكس أختها عواطف، وباقي نساء الدار من حيث الشكل، والمضمون، فرغم ما أبدته نساء الدار من عدم تقبل لوالدة ليلى، لكن ظللن يتمتعن بطيبة تظهر على ملامحهن، أما حسنات، فقد كان وجهها يغلفه السواد، وكانت نظراتها سهامًا حادة لليلى التي انقبض صدرها من حدة تلك النظرات، لكنها لم تلق لها بالًا طويلًا، وتحدثت بتودد لأطفال العائلة...

أخيرًا جاء خالد ليحتسي الشاي مع والدته، وجدته، وينال البركة قبل أن يبدأ يومه... كان قدوم خالد بمثابة طوق النجاة لليلى التي وجدتها فرصة لتنهي زيارتها

-هيه يا خالد كله تمام ؟

وقبل أن يجيبها أعطته كل الأرقام الخاصة بها ليتصل بها في أي وقت

علق خالد على تصرفها بعتاب:

-إيه يا ليلة إنت زهقتي منَّا ولا إيه ؟!

أسرعت حسنات بالرد بصوت يملأه الحقد

-طبعًا واحدة أمها خواجاية أكيد ما يعجبهاش الصعيد.

لم تدري ليلى لماذا أثارها وصف حسنات لأمها «بالخواجاية» فاندفعت صائحة:

-إنت تعرفي أمي ؟!

اندهش الجميع من ثورة ليلى على حسنات، فبالأمس تقبلت من الجميع وصفهم لأمها بأنها «خواجاية» واليوم تثور كل هذه الثورة على حسنات... سألتها الجدة لها متعجبة :

-هي أمك مش خواجاية ؟!

حاولت عواطف تهدئة الموقف

-معلهش يا ليلة إحنا صعايدة، وكلامنا على قدنا... لكن إحنا عارفين إن والدتك من بلاد برة.

شعرت ليلى بالحرج من ثورتها التي لا مبرر لها، وحاولت أن تهدأ، ولكن ظلت عروقها تنتفض من الغضب، فأي قوم هؤلاء الذين ينصبون أنفسهم حكامًا، ويفسرون تصرفات البشر وفقًا لمعلوماتهم المغلوطة عن أنسابهم..... مهما كان الأمر، فعلى ليلى الانصراف الآن لتلحق بأي قطار يغادر هذه البلدة حتى لو اضطرت لتبديل القطارات أو أخذ أية وسيلة مواصلات أخرى، المهم أن تغادر الصعيد، وتعود إلى القاهرة.... المهم أن تفر من هذا المكان الذي بدأ يضيق بها، كما ضاقت هي به.

لم يكن خالد على استعداد لترك ليلى ترحل الآن، فحيرته من أمرها لم تنته بعد، وهناك العديد من الأسئلة التي يجب أن يجد إجابة لها... لكن كيف؟! إنه لا يستطيع إرغامها على شيء لا البقاء، ولا الإجابة على تساؤلاته، وإن حاول فهل ينجح ؟؟؟!!

لقد بدت ليلى أمامه امرأة مستقلة صعبة المراس... لتكن ما تكون فهي في النهاية امرأة، وعليها الرضوخ لأوامره.

أحست ليلى أن خالد لازال لديه بعض الاستفسارات، فنظرت له مستوضحة الأمر... أدرك خالد أن ليلى تفهمه، فأثاره هذا الخاطر، وظهر التوتر، والانفعال على نبرات صوته التي ارتفعت، وهو ينادي على أحد الخفراء ليأمره بأشياء ليست مهمة، وقتها أحست ليلى بكم الغضب الذي

بداخله، وأن صياحه لا مبرر له سوى إخراج ما في صدره من ضيق... ظنت ليلى أن سببه ثورتها غير المبررة على خالته حسنات، فهو أولًا، وأخيرًا من الصعيد، والعصبية عندهم ليس لها حدود...

أوجست ليلى خيفة من هذا الخاطر...ماذا فعلت... هل جاءت لتعطي خالد حقه أم لتثير غضبه، وحنقه عليها ؟! ماذا فعلت.... هل هي في حاجة للمشكلات العائلية لتضيف صخرة أخرى إلى جبل المشكلات الذي تحمله فوق ظهرها؟!... لكنها لن تتراجع، فلا يحق لأحد مهما كانت مكانته أن يتندر على والدتها.... ليذهب خالد، وعائلته إلى الجحيم، فهي ستغادر الآن إلى غير رجعة.

عاد الخفير بعد أن نفذ ما طلبه خالد منه، وعندما رأى ليلى تحدث عنها مع خالد :

-هي الست الدكتورة حاتمر على العجول... أصل الكلاف، وإللي في الزريبة سألوا عنها.

أثار حديث الخفير ليلى، فكيف يراها، ويتحدث عنها، وكأن لا وجود لها، ومن يظن خالد هذا نفسه ؟! كيف يعطي لنفسه الحق في أن يناب عنها في الحديث إلى الخفير... نظرت ليلى باستهجان لخالد، وخفيره الذي خرج مسرعًا تاركًا خالد لنظرات ليلى القاسية.

وجدها خالد فرصة سانحة لإبقاء ليلى، والتعرف على تفاصيل تلك التركة الغامضة التي تقدمها له، كانت خطة خالد بسيطة، فقد انتهز مرض العجول، وعلاج ليلى لهم، وعرض عليها البقاء لنهاية الأسبوع خاصة أن اليوم كان الإثنين، وفي يوم الخميس يذهبان معًا لتفقد أحوال مزرعة الفيوم.

رغم أن ليلى لم ترحب بهذا الاقتراح في بادئ الأمر، فلم تجد أي مفر فقد كانت تتمنى أن تنهي موضوع الميراث، ويتسلم خالد أملاكه، وكان وعده بالذهاب معها فرصة عليها اغتنامها لتحديد كيفية إدارة المزرعة في ظل الأوضاع الجديدة، لكن أن تبقى كل هذه المدة في هذا البيت الغريب لم تكن بالفكرة المحببة لها، لكن كان هناك شيء مجهول يجذبها لهذا البيت العريق... كانت تريد أن تعرف السر الذي أخفاه والدها عنها لسنوات طويلة... لماذا كان الجفاء بين والدها، وعمها رغم حب والدها لأخيه؟!.... هل ستشي الجدران بكم الأسرار التي غلفت حياة والدها؟! انتابت ليلى مشاعر متباينة من الخوف من المكان، والانجذاب له، وفي النهاية شعرت بالدفء ينطلق من جدرانه ربما كان وجه الجدة الصبوح، أم تراه وجه الأم الباسم هما السبب وراء ذلك الشعور الذي رسم الابتسامة على وجهها، وهي تعلن قبولها لعرض خالد.

وبود، وبشاشة سألها خالد:

-لو تحبي ممكن نكلم الست الوالدة تيجي تشرفنا ؟

اندهشت ليلى من سؤال خالد، وردت عليه ببلاهة :

-والدة مين ؟! وتيجي من فين ؟!

-والدتك الست مارجريت تيجي تشرفنا، ونشيلها فوق راسنا.

استمر رد ليلى ببلاهة :

-والدتي تيجي؟!... والدتي ماتت، وأنا عمري أربعة شهور يعني من حوالي ٣٠ سنة.

أطلقت الأم شهقة فزع امتزجت بالحزن

-يا كبدي يا بنتي يعني إنت عايشة لوحدك.

نظرت الجدة بحدة لخالد

-إنت إزاي ما تعرفش إن بنت عمك عايشة لوحدها.

شعرت ليلى بمشاعر متداخلة من الضيق، والحزن، والأسى، ولم تستطع الرد على تعليقات نساء الدار، وفزعهن من حالها، وقبل أن تغزو الدموع مقلتيها فرت مسرعة، وذهبت للحظيرة لمتابعة أحوال الحيوانات...

اندمجت ليلى بالعمل، ولم تلاحظ عيني خالد اللتين كانتا تراقبها عن كثب... لم تكتف ليلى بعلاج العجول، بل تابعت أحوال كل الحيوانات الأخرى، ثم ذهبت إلى إسطبل الخيل... كان النهار قد انتصف، والجو اشتدت حرارته، فبدأت ليلى تشعر بالتعب، لكنها أصرت على مواصلة العمل... كانت بين الحين، والآخر تضع رأسها بين يدها، وسرعان ما ترفع رأسها حتى لا يلاحظ أحد شيئًا لكن كانت هناك عينان تراقبانها، وتشعران بكل ما يلم بها، فأسرع خالد إليها

-لازم تروحي... يا ليلة حر الصعيد قاسي، وإنت مش متعودة عليه.

لم تكن لدى ليلى أي رغبة في العودة إلى البيت، والجلوس وسط النساء لأنها كانت واثقة من أنهن سيتحدثن عن والدتها

-لا يا خالد أنا مش تعبانة، وبعدين ما مزرعتي...

صمتت ليلى قليلا

-أقصد ما مزرعتنا في الفيوم، والجو هناك حر.

أحس خالد بعدم رغبة ليلى في الذهاب إلى البيت، فلم يضغط عليها، لكنه في نفس الوقت ما كان ليتركها تعمل طوال الوقت، فدعاها للتجول

وسط الحقول....

كان منظر الحقول رائعًا، ورغم حرارة الجو فقد اختفى شعور ليلى بالتعب، وحل مكانه شعور غريب بالإثارة، وكأنها أحد المستكشفين الذين يغوصون في أعماق المجهول يناديه شيء غامض لا يعرف ماهيته، لكنه يستمر في السير نحو المجهول... ظلت ليلى تسير بجوار خالد تسأله عن كل ما تراه من مزروعات، وحيوانات، وغيرها من الأشياء الأخرى.

كان خالد يجيبها، وكأنه يتحدث مع طفلة صغيرة تسعى للتعرف على العالم المحيط بها، وليست دكتورة بيطرية صاحبة مزرعة... وفجأة توقفت ليلى، وظلت صامتة بعض الوقت مترددة في أن تتكلم.... شجعها خالد بنظرات متوددة، فسألته باندفاع

-أكيد إنت عارف كل حاجة عن أسباب خلاف بابا مع عمي، ويمكن عارف موضوع جدي كمان.

انخفض صوت ليلى، وتوقفت الكلمات في حلقها، فبادرها خالد

-دي حكاية قديمة.

نظرت له ليلى، وانطلقت من عينيها كل وسائل الإلحاح، والاستعطاف... فأذعن خالد لها

- وإنت عايزة تعرفي إيه ؟

- كل حاجة.

رجع خالد لسنوات قديمة مضت، وتحدث بصوت خارج من أعماق الماضي، وحكا لها قصة والدها التي لم تكن تعرف منها سوى القليل... كان والدها هو الابن الأكبر لجدها، وكان كل الآمال معقودة عليه، وكان

الابن على قدر المسئولية... تفوق في الجامعة، وذهب في بعثة للخارج للحصول على الدكتوراه، وهناك تعرف على والدة ليلى، وارتبط بها، وهذا ما رفضه الجد بشدة، وكان الخلاف بينهما، والذي انتهى بأن طرد الجد ابنه من البيت، وحرمه عليه في حياته، ومماته، وعندما توفي الجد صفى الابن كل أملاكه، وهو في الحديقة، ولم يدخل البيت، وعندما توفي أخوه الصغير لم يدخل أيضًا الدار رغم ذهابه لتلقي العزاء... امتلأت عينا ليلى بالدموع .

-أنا فاكرة اليوم ده كويس بابا رجع، والهم راكبه، ومن يومها عرف المرض طريقه، وفضل كده لحد الوفاة.

أغمضت ليلى عينيها حتى تمنع الدموع من أن تفر من مقلتيها، لكن الدموع خدعتها ، وسقطت على وجنتيها... حاول خالد تغيير مجرى الحديث

-تعرفي بعد ولادتك عمي جه لجدنا يصالحه، وكمان عشان يشوف حفيدته

-لكن طبعًا مجهودات الصلح باءت بالفشل.

ابتسم خالد

-أحسن حاجة حصلت وقتها إني شفتك يوميها... كان عندي وقتها حوالي عشر سنين لكن أنا لسه فاكر اليوم ده زي ما يكون النهاردة.

أخفى خالد ضحكة خفيفة أثارت غضب ليلى

-فيه إيه ؟!

-أبدًا أصلك كنت وقتها عندك حوالي أربعة شهور، وكنت كلبوظة، وبيضا، وشعرك أسود ناعم كنت حلوة قوي، أنا شلتك، وفضلت أبوسك....

وجمت ليلى من كلام خالد، فأحرجه وجومها أي إحراج، فنظر إلى الأرض ثم اعتدل في مشيته، وأسرع الخطى نحو المنزل، وتبعته ليلى، وهي تحاول إخفاء ابتسامتها من خجل خالد، واضطرابه.

(٣)

تغيرت معاملة نساء الدار لليلى، وخاصة الجدة، والأم اللتين كانتا تشعران بالحزن الشديد على حال تلك الفتاة التي فقدت حنان الأم منذ نعومة أظافرها، والآن لا أحد لها... كما عقدت المباحثات بين الجدة، والأم، والبنات حول تنظيم أحوال هذه اليتيمة الوحيدة، وازداد الأمر سوءًا عندما تأكدن من عدم وجود أي مشروع لزواج أو خطبة، وكان القرار بضرورة بقاء ليلى عندهم في بيت العائلة حتى تجد ابن الحلال..

أبلغت الأم خالد بذلك القرار، وهو يستعد للسفر مع ليلى إلى الفيوم

-أحوال مين إللي تنظموها دي دكتورة، ولها أعمالها في القاهرة... كمان دي بتشتغل في وزارة الزراعة.

-يعني يا ابني مافيش شغل هنا... طب ما هي كانت بتشتغل طول الأسبوع، وبعدين...

قاطعها خالد

-أمي دي لسه ما خدتش علينا، ولو زودناها معاها حاتفر.

نظر خالد إلى أمه، فصمتت، وتركته ليبدأ رحلته مع ليلى إلى الفيوم... كانت ليلى تشعر بالتوتر، وهي تجلس بجوار خالد أثناء الرحلة، ورغم أن الطريق لم يستغرق وقتًا طويلًا فقد شعرت ليلى، وكأنها ظلت جالسة بجواره لأيام طوال، ولم لا، ألم تظل لأيام طوال في ذلك البيت الغريب

الذي حرم على والدها لأنه تزوج والدتها... يا لها من قسوة !! أيمكن أن تتحجر القلوب إلى هذه الدرجة ؟؟!!

ترى ماذا ينتظرها من خالد ؟! هل سيكون مثل جده قاس القلب؟! وماذا عن والده لقد أخذ كل ما كان معدًا لوالدها حتى الميراث لا يمكن أن يكون هناك أي مبرر لمثل هذا التفاوت الكبير في ثروتي الشقيقين سوى وجود غبن واضح وقع على الابن المغضوب عليه... أي أن خالد ابن لشخص ظالم، وحفيد رجل قاس جبار، فماذا تتوقع ليلى منه، ولماذا لم يجنبها والدها الوقوع في هذه الدائرة المفرغة من الظلم، والقسوة، ويهبها كل أملاكه.. لماذا ترك الأمر لتجد نفسها مضطرة لإعطاء خالد نصف ما تركه والدها... لماذا؟؟؟ لماذا؟؟

وقعت ليلى في دائرة من التوتر، والحيرة لم تستطع الخروج منها حتى بعد أن وصلت هي، وخالد إلى المزرعة... كانت تتفقد الأرض معه، وكأنها تعطيه جزءًا من سنوات عمرها لكنها في النهاية استغفرت ربها، فهذا هو شرع الله... عندما ذكرت ليلى اسم الله دخلت السكينة إلى نفسها.

كان خالد يشاهد المزرعة، وهو مبهورًا بما فعلته، وتفعله ليلى، لكنه في الوقت ذاته لم يكن مرتاحًا بأن تتولى ليلى إدارة المزرعة... كان خالد يتابع ليلى، وهي تتحدث مع العاملين في المزرعة، وتُصرِّف كل شيء بدقة، ونظام... ورغم أن مساحة المزرعة لم تكن كبيرة، وعدد الحيوانات فيها قليلًا، فقد حولتها إدارة ليلى الناجحة إلى مزرعة نموذجية ذات إنتاجية عالية، كما أضفت ليلى عليها لمسة فنية تمثلت في الاستراحة،

والتي اتخذت شكل المباني في الريف الأوربي.

-الاستراحة دي ممكن البيات فيها لكن أنا عمري ما استخدمتها أكتر من مجرد استراحة لساعة أو اتنين

-طبعًا يعني إيه إن بنت تبات بره بيتها.

شعرت ليلى بالضيق من تعليق خالد...هو صعيدي، وتفكيره معروف تجاه المرأة

سخرت ليلى من الموقف كله، وحدثت نفسها

« يا لني من محظوظة تسوقني الأقدار لأصبح شريكة صعيدي مستبد»

ظلت ليلى شاردة، وهي تنظر لخالد، وهو يحتسي الشاي... كانت طوال الوقت تسأل نفسها

« ماذا يخبئ لي القدر ؟!ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنني أخفيت كل شيء إنهم كانوا لا يعرفون أي شيء عني حتى وفاة والدتي لا يعلم أحد عنها شيئًا... والمزرعة أنا التي أديرها، ومن فيها لا يعرفون أحد غيري حتى والدي لم يروه نهائيًا، وإن كانوا يعرفونه، فمن ذا الذي يعرف قصة الميراث ؟! ماذا لو كنت أخفيت كل شيء المال، والأرض ؟! وقتها كنت رحمت نفس من هذا القاسي المتخلف جامد الملامح...

أفاقت ليلى من شرودها، ووضعت رأسها بين يدها، وهي تتمتم

-استغفر الله العظيم

فاجأ خالد ليلى

-إنت عملتي كده ليه ؟

-عملت إيه ؟

كان خالد يشعر بالإحراج من سؤاله، لكنه لم يجد من الأمر مفرًا

-يعني تتنازلي عن نص مالك لحد ما يعرفش حاجة عن المال ده... مش حاجة غريبة، وبعدين المزرعة دي مش مشروع عمرك يعني مش بالساهل تتنازلي عن نصها....

قاطعته ليلى بحدة

-ده شرع ربنا يا خالد، لا أنا ولا إنت إللي قررناه...

أثارت حدة ليلى خالد، وشعر، وكأنها تصفعه على وجهه، فاندفعت الدماء في عروقه، فكيف لهذه الفتاة نصف الأجنبية أن تعلمه، وهو العمدة، شرع الله أتريد أن تقنعه أنها تفهم في الشرع أفضل منه، فتعامل بعصبية أدهشت ليلى، وقابلت عصبيته بحدة تقترب إلى العنف خاصة عندما تطرق الأمر لإدارة المزرعة.

-شوفي يا ليلة مش معقول إنك إنت إللي تمشِّي الشغل هنا.

-يعني إيه ؟

تصاعدت حدة خالد، وعصبيته

-إيه يا ليلة إنت عايزة إنك إنت إللي تديري المزرعة، وتعطيني مصروفي منها... هو فيه ستات لها في شغل الأرض.

ألجمت الدهشة لسان ليلى، واضطربت الكلمات في حلقها... استمر خالد في إصدار بياناته الثورية، وقراراته بأن كل شيء يجب أن يكون تحت تصرفه، فهو الرجل، ولا يحق لامرأة أن تقف وسط الرجال، وتتولى أعمال الزراعة... لم تصدق ليلى الكلام الذي سمعته من خالد، فقد كانت تعلم

أن ابن عمها هذا خريج جامعة، فكيف يكون بمثل هذه العقلية.

استطاعت ليلى أخيرًا أن تفك عقدة لسانها لكن الكلمات خرجت منها مضطربة، متلعثمة

-إنت... إنت بتقول إيه... ما أنا بأدير المزرعة من أكتر من سبع سنين، كمان أنا شفت عندكم بنات كتير بتشتغل في الغيطان.

ارتفع صوت خالد

-آه بنات تشتغل، وتجري ورا لقمة عيشها لكن مش هي إللي تدير الشغل، وتدي الراجل مصروفه..

-راجل إيه ده؟!

انطلقت السهام النارية من عيني خالد فتملك ليلى الخوف، وشعرت بالدماء تتجمد في عروقها، فوقفت صامتة كالتمثال، ثم تحدثت بصوت خافت

-آسفة أنا ما أقصدش أضايقك..

حاول خالد أن يكظم غيظه، وأشاح بوجهه عنها، وعاد لاحتساء الشاي... ظلت ليلى تشعر بالإحراج مما تفوهت به، ولم ينقذها سوى جرس هاتفها المحمول... أخذت ليلى مكانًا قصيًّا، وتحدثت بصوت خافت لم يسمعها خالد في البداية، لكن سرعان ما وصل إلى مسامعه بعض الكلمات التي جعلته يدرك أن الحديث مع شخص اسمه د/ محمد، وهو قريب منها...

لم يحاول خالد أن يسألها عن الشخص الذي اتصل بها، فهذا تطفل لا مبرر له، لكنه في الوقت ذاته لم يستطع أن يطرد من ذهنه التفكير في محمد

هذا، فمن هذا المحمد، ولماذا تتحدث معه بصوت خافت ؟!

زاد من حيرة خالد شكل ليلى بعد المكالمة، فقد كانت واجمة شاردة الذهن... هل ليلى فتاة عابثة لها العديد من الأصدقاء، ولم لا؟! أليست نصف أجنبية حتى ولو كانت عاشت كل سنوات عمرها في مصر، ورباها عمه الصعيدي «فالعرق يمد لسابع جد»... أنب خالد نفسه بشدة

«ما هذا الهراء لا... لا يمكن أن أسيء الظن هكذا بابنة عمي... إن شكلها، وأسلوبها لا يدل مطلقًا على إنها فتاة عابثة... لكنها جميلة،لا إنها رائعة الجمال، فلماذا لم تتزوج حتى الآن ؟! أتراها لم تجد الفارس الجدير بها، أم ترى أن محمد هو الفارس المنتظر»

تملك الخوف، والضيق من خالد، ودخل في دوامة من الحيرة، وظل شاردًا لفترة طويلة، ولم يفق من شروده إلا على صوت ليلى

-أحسن نمشي دلوقتي... آه إنت حا ترجع على الصعيد، وأنا حا أسافر القاهرة.

أفاق خالد من شروده، ونظر بسخرية لليلى

-فعلًا راجل إيه ؟!

شعرت ليلى بأنها دائمًا ما تندفع في الكلام، ولا تدرك عواقب ما تقوله

-خالد واضح إن فيه فرق كبير بينا في التفكير، وقبل ما تفهم كلامي غلط والله أنا ما أقصدش أي حاجة تزعلك.... خالد صدقني أنا... إنت

عادت ليلى لاضطرابها،ولم تستطع إكمال حديثها، فنظر خالد لها بعتاب يغلفه حنان لم تعتاد عليه منه، وكأنه يؤنب طفلة صغيرة مدللة

أساءت الحديث مع الكبار، وبدون أي تعليق أو اعتراض ركبت ليلى مع خالد سيارته ليوصلها إلى منزلها في القاهرة.

كان خالد يرتدي ملابس عصرية جعلته يبدو أكثر وسامة، وشبابًا لكن ليلى كانت تشعر بضخامته، وكأنها تجلس بجوار عملاق.... تملك ليلى الضيق، وتمنت أن تفر هاربة من السيارة... كم سخرت من نفسها، ومن تفكيرها الطفولي، لكنها لم تستطع التخلص من ضيقها.

حاولت ليلى أن تحد من طوفان الملل الذي يجتاحها بالحديث في أي موضوع، لكن الكلمات خذلتها، فمع من ستتحدث : شخص أجبرها القدر على شراكته إلى الأبد، وهو لا يكتفي بما سيحصل عليه من مال بل يريد المزيد، فالجاه، والسلطان لا يمكن أن يتنازل عنهما بسهولة، فماذا ستفعل ليلى معه.

أفاقت ليلى من شرودها على صوت خالد يطلب منها الرد على هاتفه، فهو لا يستطيع الرد أثناء القيادة، وقد كان هاتف خالد لا يتوقف عن الرنين، وكانت كلها مكالمات من البلد... أغلبها دارت حول مشاكل الأسرة، فلم يستنكر أحد رد ليلى على الهاتف، والحديث معها عما يريده، لم يختلف حال ليلى فقد وجدتها فرصة للتعرف على كل أحوال الأسرة، فالجدة تعاني من عدم توافر الدواء في البلد، ويحضره خالد لها من القاهرة، أما الأم فقد أسعدها الحديث مع ليلى، ونسيت ما كانت تريده من خالد، وبالنسبة لهناء، فمشاكلها مع أولادها لا تنتهي، فقد أنجبت خمس أبناء كلهم مشاكل خاصة الأولاد، فهم غير مجدين في دراستهم، ويعتمدون على أن خالهم هو العمدة، وهو ما يرفضه خالد، والنتيجة أنه يعنفهم دائمًا

حتى تستقيم أحوالهم، أما سوزان، فهي الابنة الصغرى المدللة، ولم لا؟!، فهي طالبة جامعية، ومخطوبة، ويعاملها خالد على إنها ابنته، وليست أخته، فهو يكبرها بحوالي عشرين سنة، ومن الطبيعي أن تكون سوزان هي ابنته... فرحت سوزان عندما ردت عليها ليلى، فقد وجدتها فرصة لتملي علي خالد قائمة طلباتها المعتادة... على العكس منها كانت سوسن، والتي لم تحك شيئًا لليلى، وأصرت على الحديث مع أخيها... أوقف خالد السيارة، واستمع لشكوى سوسن، والتي فهمت ليلى من خلال رد خالد عليها أنها تدور حول زوجها، فآثرت أن تحترم خصوصياتها، وغادرت السيارة... بعد لحظات انضم خالد إليها.... كان الوقت قد اقترب من الغروب، وبدا منظر الصحراء رائع الجمال، والشمس تحتضن الرمال.

-تمني أمنية..

كان صوت خالد هادئًا رخيمًا جعل ليلى تنسى كل مشاكل اليوم، وما سببه خالد لها من مضايقات، فأغمضت ليلى عينيها، وتمنت، وتمنت.... كان خالد ينظر لها، وأمنية وحيدة تملكته بأن يمتلك عصا سحرية ليحقق لليلى كل أحلامها.

(٤)

كان الخلاف بين ليلى وخالد على إدارة المزرعة مسلسل دائم لا ينقطع، ويكاد أن يكون يوميًا... كان خالد يأتي إلى المزرعة في أي وقت يريد دون الاتفاق مع ليلى، وكان يلقي بأوامره للعاملين، وكثيرًا ما خالف تعليمات ليلى لتأتي بعده إلى المزرعة، فتثور ثورة عارمة...وعندما تتصل بخالد للاجتماع به تفاجئ برده بهدوء يصل لحد البرود

-أهلًا وسهلًا تيجي تآنسي، وتشرفي...الكل حا يفرح قوي.

-خالد أنا عايزة أتكلم في موضوع الأرض.

-ليلة الكلام في موضوع الأرض مالوش عازة، وهو أنا لسه حا أعرف الأرض، دي المزرعة كلها ما تجيش حاجة في الأرض إللي تحت إيدي.

كان حديث خالد دائمًا ما يقابل بالرفض العنيف من ليلى، وكم اعتبرته مهانة بالغة لها، ويجب على خالد الاعتذار عما يقوله، لكنها لم تكن تصل إلى أية نتيجة مع خالد عبر الهاتف، فأوصت عمال المزرعة الاتصال بها عندما يحضر ليجدها وجهًا لوجه أمامه .

استقبل خالد ليلى بترحاب مبالغ، فشعرت، وكأنه يتعامل على أنه صاحب المكان، وهي مجرد ضيفة، فرمته بنظرات غضب حارقة تلقاها خالد بنظرات تملأها السعادة الغامضة التي لا يعرف أحد سرها سوى خالد، فقد حقق النجاح الذي كان يسعى إليه، وها هو يلتقي مع ليلى على

فترات متقاربة، وليس كأول مرة، والتي انتظر بعدها ثلاثين عامًا ليقابلها مرة أخرى... لا... لن يتكرر هذا أبدًا إنه معها دائمًا...

ملأت السعادة صدر خالد، وانطلق نورها من عينيه يملأ الدنيا ضياءً، لكن ليلى لم ترها، بل لم تلحظ إلا كل جبروت، وتحد، فوافقت على قبول التحدي، ووقفت أمامه مرفوعة الهامة.

-شوف يا خالد المزرعة دي مشروع عمري، وأنا مش حا أتركها لك مهما حصل.... فعلًا شرع ربنا قسمها بينا، لكن والله لو كان عندي سيولة لاشتريت نصيبك، لكن مش مهم خد فيلا المعادي كلها، ومش مشكلة أعيش في أي مكان.

رد عليها خالد بسخرية

-يعني الفيلا، ولا الأرض... طب ما إنت عايشة في الفيلا..

استشاطت ليلى غضبًا، وكادت أن تقذفه بأي شيء أمامها، وارتفعت نبرات صوتها بحدة

-آه ده قصدك، انسى، أنا لا يمكن أترك لك الأرض.

نظر خالد لها بحدة، وأطلق سهامًا نارية من عينيه، لكنه سرعان ما أعادها إلى أدراجها خوفًا من أن تصيب ليلى بأذى... فهي ليلى ابنة عمه الصغيرة التي لا تعرف الكثير عن عاداتهم..

-ليلة أنا ممكن أقبل أنك أحيانًا بتتجاوزي في الكلام، لكن أسلوب الزعيق ده مش مقبول نهائي.

أغمضت ليلى عينيها لتهدأ من ثورتها، وأخذت تستغفر الله على كل وساوس الشيطان التي ملأت نفسها، والتي كانت تلومها لتنفيذها لشرع

الله... تركت ليلى خالد، وذهبت تتفقد أحوال المزرعة، وترى ماذا يفعل خالد بها، وحاولت إعادة الأمور إلى نصابها المعتاد.

استمرت الحرب الباردة بين خالد وليلى، والتي كثيرًا ما كانت تتحول إلى حرب كلامية عبر الهاتف أو عندما يلتقيان في المزرعة... كان خالد كثيرًا ما يحول حربه إلى أفعال حقيقية، وهو ما كانت ترفضه ليلى كل الرفض، فالمزرعة بالنسبة لها ليست مشروعًا تجاريًا، بل هي مشروع خاص جدا، ولها مكانتها في قلب ليلى... كل ما فيها له ذكرى عزيزة عند ليلى خاصة الحديقة الصغيرة التي تحيط بالاستراحة، فقد قسمتها لزراعة النباتات التي يحبها والدها... جزء للورد البلدي ذات الروائح الفواحة، وجزء آخر للفواكه التي يحب والدها تناولها، والخضراوات هي الأخرى كان لها نصيب... كل ما يحبه الوالد، كانت ليلى تنظر إلى تلك النباتات كانت تتذكر كيف كانت تعود من المزرعة متعبة، وتحمل معها أكياسًا من الخضراوات، والفاكهة، وباقة من الزهور لتقدمها إلى والدها الذي كان يستقبلها وهو يمدّ ذراعيه فخرًا بابنته، فهو يعتبرها أعظم فتاة في الكون... لازالت كلماته ترن في أذنها

-إنت وحشة... كده طول النهار بعيدة عني.

فتصالحه بباقة الزهور التي كانت تكثر فيها من اللون البنفسجي بكل درجاته، فقد كان والدها يعشق هذا اللون... آه، والآن الحديقة كما هي، وها هي النباتات تصرخ تريد أن تقطفها، لكن لمن ستذهب بها... لقد ذبلت الورود على أغصانها، الفواكه لم تعد تفوح برائحتها الجميلة، أتراها خجلت من أن تفوح لغير والد ليلى...وحتى الخضراوات تغير شكلها،

وأصابها العفن، وهي في أرضها، فلمن ستطهوها ليلى، إنها لم تعد تتناول إلا أقل القليل، فقط ما يجعلها تواصل يومها، وكثيرًا ما تتناول طعامها من أي محل تمر عليه، وهي في طريق عودتها للمنزل..

شعرت ليلى بوحشة غريبة، وبالبرودة تسري في أوصالها، وضاعف من إحساسها وصول خالد إلى المزرعة مما يعني المزيد من المشاحنات، لكن خالد لم يكن كعادته، فما أن دلف إلى الحديقة حتى أحس بليلى حتى قبل أن يرى وجهها، وقد بلله الدموع التي أسرعت ليلى بتجفيفها، وافتعلت ابتسامة ترحيب بخالد.

لم يحاول خالد أن يسأل ليلى عمَّا ألم بها فقد كانت واجمة طوال الوقت... تنظر شاردة للحديقة، والنباتات التي فيها... انتبهت ليلى على صوت خالد

-كان عمي بيحب الجنينة دي ؟

لم ترد ليلى عليه، واكتفت بأن أومأت برأسها، وغرقت في بحار شرودها وسط ذكريات رسمت على ملامح وجهها لوحة من الحزن، والأسى مبللة بالدموع.

أراد خالد أن يمحو هذه اللوحة من الوجود، فعاد في اليوم التالي إلى المزرعة، وأمر بإزالة أغلب نباتات الحديقة، واستبدال كل ما فيها... كما تدخل في الأسلوب الذي وضعته ليلى في تسمين بعض العجول.

وصلت الأخبار إلى ليلى سريعًا، فلم تستطع كبح جماح غضبها، وذهبت بأقصى سرعة إلى المزرعة لترى آثار عدوان خالد عليها... ما إن رأت ما فعله حتى انطلقت إلى منزل عمها.

دلفت ليلى إلى مكتب خالد، والشرر يتطاير من عينيها، كان خالد يجلس خلف مكتبه، وأمامه مجموعة من رجاله لم تلتفت ليلى لأحد، واتجهت مباشرة لخالد... وقف خالد مرحبًا بابنة عمه، لكنها اندفعت تطلق صواعق غضبها، وتضرب على مكتبه بقبضة يدها

-ممكن أعرف إيه إللي عملته ده ؟

كانت ثورة خالد لا تقل في قوتها عن ثورة ليلى، فكيف لامرأة مهما بلغت مكانتها تتهجم على العمدة في مكتبه، وأمام رجاله الذين فروا هاربين عندما رأوا خالد ينتفض واقفًا، وشرارات الغضب تنطلق من عينيه.

-سبق، وأن نبهتك أن أسلوب الزعيق ده مرفوض.

واصلت ليلى ثورتها، وضرباتها على زجاج مكتبه

-المشكلة في صوتي العالي... إنت مش عارف إنت هببت إيه ؟

-ليلة عيب إللي بتعمليه ده إنت بنت عيب الزعيق ده.

ارتفع صوت ليلى، ووصل لحد الصياح

-بنت!! أنا دكتورة... ويا سيدي أكون إللي أكونه، أنا ليا نص المزرعة، ومن بكرة حا أقسمها، وأحط سور حديد بينا .

جاءت الجدة، والأم مهرولتين على صوت ليلى، وتبعهم رجل غريب عرفت فيما بعد أنه حسان زوج هناء...

صاح حسان في ليلى

-إيه يا حرمة...إنت جاية تزعقي لينا في دارنا، والله إنت مالكي دية، ولا حد يسأل عنك

استشاط خالد غضبًا من كلام حسان، وصاح فيه

-أنا أهلها، وكل عيلتها... حد له شوق في حاجة..

نظر خالد بحدة للجميع، فألجمتهم نظراته، وأسرع حسان بمغادرة المكتب... ظلت الأم، والجدة، وحاولتا تهدئة الموقف، دعتا ليلى، وخالد بأن يجلسا، وطلبت الجدة من ليلى أن تحكي لهما ما فعله خالد، وكيف أساء لها..

هدأت ليلى قليلًا، وروت لهما سبب ثورتها

-والأهم موضوع العجول إللي كنت عاملة عليهم تجارب الدكتوراه... ماله هو وطريقة أكلهم... التجربة خربت، وعشان أعمل واحدة تانية لسة حاأستنى فترة، وللأسف أنا ما عنديش سيولة عشان أبدأ التجربة من الأول..

أدركت ليلى أنها تتحدث باندفاع، وتشركهم في أمورها الشخصية، فمالهم بما لديها، أو ما تريده المهم يجب أن تنهي كل علاقة تربطها بخالد.... أحس خالد ببشاعة الجرم الذي ارتكبه، وتحدث بأسف

-أنا ما كنتش أعرف إنك لسه بتعملي أبحاث الدكتوراه كمان...

قاطعته ليلى بحدة

-إسأل.. إحنا مش شركا، إلا إزاي وإنت العمدة خالد بيه... وكمان إنت مالك، وجنينة بابا، والورد إللي أنا زرعاه عشانه، والفاكهة إللي بيحبها دخلك إيه بيها كنت إخصمها من نصيبي لكن إزاي ما تنغصش عليَّ عشتي، لكن المهم بابا عملَّك إيه عشان تعمل كده فيه ؟؟؟

نظرت الأم، والجدة لبعضهما البعض بدهشة، واندفعت الجدة متسائلة:

-طب إنت زعلانة ليه، هو مش والدك يعني العمر الطويل لك..

دارت الدنيا بليلى، وأمسكت رأسها بإحدى راحتيها، وأدركت أنها تتحدث عن والدها بصورة لا يفهمها أحد

-آه... آه بابا مات، وأنا ما ليش حد، وما ليش دية فعلًا..

جرت ليلى مسرعة من هذا المنزل الكئيب الذي سبق، وأن حُرِّم على والدها، فلماذا تدخله هي الآن؟؟!! انطلقت ليلى تجري مسرعة إلى سيارتها، وخالد يجري خلفها حتى لحقها عند بوابة القصر.

-إهدي يا ليلة الموضوع ما يستهلش...

أشاحت ليلى بوجهها عنه، فحدثها بترجي

-ممكن تصلي على النبي، وتوحدي الله.

-لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله.

- والله أنا شفت الجنينة بتقلب عليكي المواجع فعملت كده عشان ما تزعليش كل ما تشوفيها.

-وإتصرفت لوحدك، ومش مهم رأيي أنا إيه...

-أنا لا... ما كنتش عايز أفتح الموضوع نهائى كنت عايز أمحيه لما شفت الدموع في عنيكي..

أربكت نبرات صوت خالد الحانية ليلى، وحاولت الرد عليه، لكن قاطعها قدوم أحد الخفراء، وهو يجري لاهثا ليبلغ خالد بتعب شديد ألم

بالجدة.... أسرع خالد وليلى إلى حجرة الجدة حيث تجمع حولها الأم، والحفيدات... الكل هلع... أسرعت ليلى بإحضار حقيبتها من السيارة، وأخرجت منها جهاز قياس الضغط، وبدأت ليلى في إسعاف الجدة، وسط دهشة الجميع...

شرحت لهم الأمر ببساطة ..

-الموضوع بسيط الضغط منخفض ممكن أشوف الدوا بتاعها.

لاحظت ليلى دهشة الجميع، فشرحت لهم الأمر..

-أنا بأفهم في أمراض القلب شوية بسبب مرض والدي، ومن يومها، جهاز الضغط والسماعة دايمًا في شنطتي معايا.

أسعفت ليلى الجدة التي ما أن أفاقت حتى بدأت في البكاء، وتقبيل ليلى من وجنتيها، وكتفيها معتذرة عما قالته لليلى... نظرت ليلى متعجبة، وسرعان ما تحول تعجبها إلى تأثر، فكيف لهذه الجدة العجوز أن تراعي مشاعر الفتاة الغريبة بمثل هذه الصورة ؟!

أخرج خالد والدته، وسوسن، وهناء، ولم يبق إلا على سوزان... أعربت سوزان عن سعادتها بشفاء جدتها، وبقاء ليلى معهم ..

-إيه يا دكتورة لازم حد يمرض عشان نشوفك ؟!

ردت عليها ليلى بابتسامة، وسرعان ما تذكرت المهام التي عليها في القاهرة، فاتصلت بصديقتها ريم، وطلبت منها إلقاء كلمة الجمعية نيابة عنها... كم كانت سعادة ليلى، وهي تخبر صديقتها بأنها لن تستطيع حضور الندوة التي أعدت لها الجمعية المشاركة فيها، وذلك لمرض جدتها... كانت تقول كلمة جدتها، وشعور غامض يجتاح كل كيانها،

فها هي أصبح لها جدة في لمح البصر...

لم تكن سوزان أو خالد أقل سعادة، وإن اختلف مصدر سعادة كل منهما، لكن سرعان ما اختفت كل ملامح السعادة من عيني خالد لتعود إلى نظراتها المتوحشة القاسية التي تريد الفتك بليلى فقد رن جرس هاتفها، وكان المتصل هو د/ محمد...

دوت في صدر خالد صرخة غاضبة

«يا لها من فتاة عابثة يلاحقها ذلك الوغد أينما ذهبت حتى في مثل هذا الوقت المتأخر»

لم يجد خالد حرجًا من التنصت على مكالمة ليلى.... كانت ليلى تتحدث بصوت خافت، واتخذت مكانًا قصيًا في الحجرة، فازدادت النيران تأججًا في صدر خالد، وظل يسأل نفسه بحدة:

«لماذا أغضب هكذا، أليست ليلة من بنات القاهرة، ولها عاداتها، وسلوكها المختلف عنا... ماذا يا خالد ألم تدرس في القاهرة، وكان لك العديد من الزميلات... لا.. لا طريقة حديث ليلة مع محمد مختلف... آه يبدو أن عمي لم يكن حازمًا معها... يكفي أنه تركها تدير مزرعة بمفردها... آه يا ليلة هل ستضعين رأس أسرتك في الوحل... آه يا خالد... كيف سأتعامل مع هذه الفتاة التي ستجلب العار لنا، هل أقوم وأكسر هاتفها، ومعه رأسها».

تزايدت ثورة خالد على ليلى، وقبل أن تنفجر براكين غضبه، وصلت إلى مسامعه بعض كلمات من حديث ليلى... كانت هذه الكلمات كافية لإخماد كل نيران غضبه، فقد دل الحديث على وجود مشكلة ما خاصة بالعمل.

كان خالد يتلهف ليعرف طبيعة المشكلة التي تواجها ليلى، لكنه سألها، وهو يخفي اهتمامه ويبدي إنه غير مكترث، يجاملها فقط... لم تعره ليلى أي اهتمام، ولم تجب عليه بل انشغلت بالحديث مع الجدة، وسوزان حول موضوعات بسيطة، وحاولت قدر الإمكان تجاهل خالد... ظل خالد ينظر إلى ليلى، وهي تتحدث دون أن يحاول التدخل في الحديث فهو يعلم تمام العلم أنه شخصية مرفوضة، فتركهن مطمئنًا، فليلى ستقضي هذه الليلة معهم، ولا داعي للقلق عليها.

استيقظت ليلى في الصباح الباكر، وقد شعرت بالنشاط، والحيوية، فخرجت لتستنشق هواء الصباح في الحديقة المحيطة بالبيت... كانت ترتدي قميصًا وبنطلونًا لونهما أسود.... وقفت ليلى وسط الحديقة كزهرة متفتحة وسط الأزهار... كان خالد يقف في الشرفة، وينظر إلى الحديقة، وقد زادت عدد أزهارها... لم يحاول أن يجعلها تنتبه لوجوده لتتصرف كما يحلو لها.... ظلت ليلى تتأمل الحديقة، وخالد يتأمل ابنة عمه القادمة من المجهول.

اتخذت ملامح خالد شكلًا جديداً بعيدًا عن الجمود، والتجهم عندما رأى ليلى تتجه نحو شجرة البرتقال... عاد خالد سنوات للوراء، وتذكر عندما حمل ليلى، وهي صغيرة، واتجه بها نحو شجرة البرتقال... كم تمنى لو يستطيع أن يفعلها ثانية.

وقبل أن تأخذه الأحلام بعيدًا لمح أحد الخفراء يتجه نحو ليلى، ويأخذها في اتجاه إسطبل الخيول... كان الأمر في البداية ليس ذا بال، فلم يفكر خالد في الذهاب معهما، لكن في لحظة واحدة انقلب الأمر رأسًا

على عقب، فقد لاحظ عينين ذئبيتين ترقبان ليلى، تسيران خلفها عن بعد.

كان سيد زوج أخته سوسن المشهور بأنه لا يترك أي امرأة دون أن يأخذ منها كل ما يستطيع الحصول عليه من أصغر شيء لأكبر شيء المهم لا تخرج أي امرأة من تحت يديه، وكم عانت أخته منه، لكن لا يمكن أن تتركه، فأسرته من أكبر عائلات المنطقة، ولها دورها في دعم كرسي العمودية التي تتوارثه عائلة القاضي، وقد زوجها والدها من سيد لتقوية الروابط العائلية بين الأسرتين، فكل ما تشكو منه سوسن لا محل له، وينكره الجميع رغم علمهم كل العلم أنها صادقة فيما تدعيه، لكن أتصل به الوقاحة لملاحقة ابنة عم خالد...أيمكن أن يكون سيد قد وصل لهذه الدرجة ؟!لم يضع خالد وقته في التفكير، وأسرع ليتفقد الأمر بنفسه.

كانت ليلى تقف في الإسطبل، وقد شمرت عن ساعديها اللذين ظهرا كعمودين من المرمر يمتصان الضوء البسيط بالمكان، ويعكسانه ليمتلأ المكان ضياءً.. ويزداد الضياء من ابتسامتها التي تملأ وجهها، وهي تتعامل مع الخيل، وكأنها تعرفهم منذ زمن.

وقف سيد أمام باب الإسطبل يرمي ليلى بسهام نظراته القذرة، ثم اتجه نحوها، وعرفها بنفسه بأسلوب مفتعل لا يخفي غرضه عن أي فتاة... شعرت ليلى بالاشمئزاز، ونظرت له باحتقار، لكن سيد تمادى في غيه، وحدثها بسخافة:

– والله الواحد يتمنى يبقى حصان عشان تهتمي بيه كده..

نظرت له ليلى بحدةً

–على فكرة أنا بعالج الحمير كمان...أستاذ سيد فيه حاجة.

في الوقت ذاته اقتحم خالد الإسطبل، والشرر يتطاير من عينيه... أحس سيد بالرهبة، فترك المكان مسرعًا، وهو يتلعثم، ولا يدرى ماذا يقول.

اتجه خالد إلى ليلى بنظراته الحادة القاسية، فخرج كل من في المكان، ولم تبق غير ليلى... شعرت ليلى بالخوف لأول مرة من خالد... صاح خالد متهمًا إياها بالاستهتار...لم تستطع ليلى الرد في بادئ الأمر، فقد ألجمها الغضب، لكن سرعان ما انفجر بركان الغضب بداخلها، فبادلته الصياح

-حذار إنك تقول أي كلمة عني استهتار إيه إنت نسيت نفسك..

كانت كلمات ليلى الحادة كفيلة بأن يصفعها خالد لكنه أطبق قبضة يده، وضغط على أسنانه

-إنت مش شايفة نفسك لابسة بنطلون، ومشمرة، وجيه سايقة عربيتك ناقص إيه عشان ما تبقيش نهب لأي واحد قذر

اتسعت عينا ليلى من الدهشة

-إنت عارف مين الغلط، وشفت أنا رديت عليه إزاي، ومع ذلك إنت بتقلب الحقيقة... هو العدل ردع الفاسد، ولا سجن البريء ده بقى إللي درسته في الحقوق يا ابن عمي...

تركته ليلى، وقد ألجمته كلماتها، ولم تعود للبيت بل اتجهت إلى سيارتها لتعود إلى منزلها في القاهرة، وهي مقتنعة كل الاقتناع بأنه لا مفر من إقامة آلاف الأسوار بينها، وبين خالد.

(٥)

حاول خالد الاتصال بليلى مرات عديدة، لكنها لم تجبه، بل أخذت تدرس بجدية موضوع تقسيم المزرعة، لكن لم يكن الوقت، ولا طبيعة المزرعة تسمحان بهذا التقسيم، وكان عليها أن تنتظر موسم الحصاد على الأقل لتبدأ التفكير في كيفية تقسيم المزرعة، فهو أمر صعب جدًا بل لعله يكون مستحيلًا، فقد أعدت المزرعة بصورة متكاملة يخدم كل جزء منها الآخر، لكن مهما كانت الخسائر، فلا يوجد ما هو أهم من الابتعاد عن خالد.

وعلى العكس منها كان خالد يقتله القلق عليها، لكن كان قلق يغلفه الغضب، فبدا حانقًا عليها يريد أن يفتك بها لا أن يطمئن عليها، فلم يحاول أي شخص أن يحدثه عنها... مرت الأيام، وخالد لا يعرف شيئًا عن ليلى، ولا يستطيع الاتصال بها، فقد رفضت الرد عليه مرات عديدة، فلا يمكن أن يفرض نفسه عليها أكثر من ذلك...

«ربما كانت مريضة... لكن هل المريض يظل طوال الوقت لا يستطيع أن يرد على هاتفه.... آه.. أيمكن أن يكون أصابها مكروه، وهي في طريق عودتها، لقد كنت قاسيًا معها، أغضبتها، والطريق السريع خطر».

انقبض صدر خالد عندما دار في ذهنه هذا الخاطر، فبحث، وسأل

عن أية حوادث وقعت في ذلك اليوم، لكنه لم يجد شيئًا... كم كانت فرحة خالد، وقد أيقن أن ليلى عادت سالمة، ولكن فرحته تلك سرعان ما تحولت إلى غضب عندما تأكد أنها ترفض الحديث معه... ألا يحق لها أن تعبر عن غضبها لقد أساء لها فعلًا، وقولًا، وينكر عليها حتى الحق في الغضب.

لم يكن الأمر بالنسبة لليلى سببه الغضب من سلوك ابن عمها الذي وصفته بالتخلف بل كان جبل مشاكل ليلى شاهقًا، ولا يمثل خالد فيه سوى حجر واحد...

كانت مشاكل ليلى قد بدأت منذ فترة ليست بالقصيرة، وقبل أن تذهب للصعيد... لا تزال ليلى تتذكر كيف بدأت المشاكل... كان ذلك بعد وفاة والدها بفترة قليلة، فبعد عودتها للعمل بعد الإجازة التي حصلت عليها عقب الوفاة... وقتها كان العمل هو كل ما يشغلها، فقد كان الحزن قد بلغ منها مبلغًا، ولم تكن قادرة على البقاء لفترات طويلة في بيتها بعد أن فرغ من كل مظاهر الحياة، وأصبح بارد الجدران، فلم تكن تشعر إلا بالوحشة عندما تطأ قدماها المنزل..

كان العمل وقتها هو طوق النجاة، فكانت تقضي معظم وقتها فيه... وقتها لاحظت عدة أشياء غامضة في أحد مشروعات التسمين التي تقيمها الوزارة بالتعاون مع إحدى الجهات الأجنبية، وكانت ليلى ضمن فريق العمل فلاحظت وجود خلل في تركيبة الأعلاف، وعدم الدقة في البيانات التي يتم تسجيلها إضافة إلى حدوث تغيرات سلبية على عجول المشروع.

في البداية شعرت ليلى بالخوف من ألا تكون استنتاجاتها صحيحة، فاتجهت إلى د/ محمد أستاذها الذي يشرف على رسالتها لنيل درجة الدكتوراه، كما إنه هو الذي رشحها للعمل في المشروع، فهو مستشار الجهة الأجنبية المشاركة فيه.

كان رد د/ محمد مثيرًا للدهشة، فقد استقبل كلام ليلى ببرود، وعدم اكتراث، وصورها بأنها وقعت في أخطاء لا يقع فيها طالب مبتدأ، ونصحها بأن تأخذ إجازة لتريح أعصابها... شعرت ليلى بهزة أفقدتها الثقة في نفسها خاصة أنها كانت تتعرض لظروف نفسية قاسية.

قضت ليلى الليل ساهدة تعيد التفكير في الحال الذي وصلت إليه لقد أصبحت غير قادرة على التفكير السليم في أي شيء فمنذ أن فقدت والدها أظلمت الدنيا في وجهها، وانتقل الظلام إلى نفسها ليلقي غشاوة على عقلها، ويجعلها تتخبط في التفكير، ولا تستطيع التدقيق في أي شيء، وقد انعكس ذلك على كل ما تقوم به حتى الأشياء الصغيرة.

حاولت ليلى قدر المستطاع نسيان الأمر، وركزت على دراستها، وعلى نشاطها في الجمعية العلمية المشتركة فيها، وأثناء حضورها إحدى الندوات رأت الحقائق تتبلور أمام عينيها لترسم صورة واضحة، وبدأت صورة د/ محمد رجل العلم الفاضل يعلوها الظلال، فهو مستشار الجهة الأجنبية، فلماذا.... لماذا ؟!

أسرعت ليلى إلى مقر عملها، وتفحصت كل أوراق المشروع، وانتقلت إلى مكان العجول، وفحصتهم، وأخذت عينات... كانت تتصرف سريعًا قبل أن يعرف أحد بأمرها، وعندما تجمعت كل خيوط الفساد بين يديها

أسرعت بإبلاغ الرقابة الإدارية التي بدأت تحرياتها... أظهرت ليلى أنها لا تعرف أي شيء عما يحدث.

لكن د/ محمد كانت تساوره الشكوك حول ليلى، فكان قرارها بأخذ إجازة بدون مرتب لمدة عام بحجة أن المزرعة تحتاجها، ولديها مشاكل في الميراث، وأكدت للجميع أنها ليس لها أي شأن بقضية الفساد في تسمين العجول...

لكن د/ محمد لم يكن مقتنعًا بما قالته، أو فعلته، فهي تلميذته، ويعلم تفكيرها جيدًا، وسبق إن أخبرته بشكوكها، فكيف تصل الرقابة الإدارية للشكوك نفسها في مثل هذا الوقت القصير... بدأت اتصالات د/ محمد بليلى دون انقطاع.

حاولت ليلى في البداية تصنع البلاهة، لكن هذا لم يكن خافيًا على د/ محمد، فاستمر في مناوراته لها... حاولت ليلى الهروب من تلك المناورات، واتجهت للبحث في موضوع الميراث.

سار موضوع الميراث بالتوازي مع قضية الفساد، لكن هذا لم يخفف الضغوط على ليلى، بل زاد من حدتها... فخالد شخصية صعبة التعامل معها، ود/ محمد كشف أمرها خاصة بعد انتهاء تحقيقات النيابة، وتحويل القضية للنائب العام، أما زملاء العمل فقد تنكر الجميع لها، واعتبروا أن مجرد الحديث معها قد يجلب عليهم مشاكل هم في غنى عنها، فآثر كل واحد السلامة، وأنكر معرفته بأي شيء حتى زميلها وليد شعبان الذي ظل لسنوات يلهث خلفها لتوافق على الارتباط به هو الآخر نكرها.

لم تجد ليلى سوى ريم زميلتها في الجمعية العلمية، وصديقتها المقربة، فكانت تقضي معها معظم الوقت، وبعد عودتها من الصعيد دعتها إلى منزلها لتشاركها في إعادة ترتيب المنزل، فنظامه الحالي يشعرها بالضيق، والرغبة في البكاء.

كانت ليلى تعمل في المنزل بعصبية مبالغ فيها دفعت ريم لتنبيهها أكثر من مرة، لكن ليلى لم تلتفت لها، واستمرت تعمل بعنف وعصبية، وكأنها توجه ضربات لكل من يضايقها، فحملت سجادة البهو، ووضعتها على السور في السطح، وأخذت تنفضها... كانت تضربها، وفي كل مرة تتخيل وجه أحد الأشخاص الذين أذوها... مرة خالد لتدميره حديقتها، وضربة أخرى له فقد خرب تجربتها، أما هذه الضربة للدكتور محمد الأفَّاق الذي يتستر برداء العلم ليغطي على فساده، لكنها سرعان ما تعود لتوجيه ضربات لخالد مرة أخرى، فكيف يتحدث عن أخلاقها هذا الفاسد ماذا كان يظنها بنت «الخواجاية» المستهترة... هل نسى عمه، وقيمه، وأخلاقه ليظن بابنته الظنون .

«لتكن تلك الضربات من نصيبك يا خالد، فهذا أقل ما تستحقه»

لم يكن خالد بأقل حدة من ليلى، فقد تملكه الغضب من عدم قدرته على الوصول لها، فظل يتصل بها مرات، ومرات... لاحظت ريم إلحاح المتصل، فنادت على ليلى، لكنها لم تسمعها، فردت هي على هاتفها

-ليلة موجودة ؟

اندهشت ريم من اسم ليلة، لكنها تذكرت ما سبق، وأن أخبرتها ليلى عن خالد، وأهلها في الصعيد.

-آه... دقيقة واحدة... إنت خالد أنا ريم صاحبة ليلى.

أسرعت ريم لتنادي على ليلى، لحظتها تلاشت ثورة خالد كلها، فقد أدرك من كلام ريم أن ليلى تتحدث عنه دائما لصديقاتها، لكن كيف تتحدث عنه... لا يهم... ما يعنيه أنه يشغل تفكيرها، ويسيطر على حديثها مع الصديقات... شعر خالد بالسعادة، فانعكس ذلك على نبرات صوته، وهو يتحدث إلى ليلى...

لم يكن لدى ليلى أي رغبة في الحديث مع خالد، أو سماع صوته، فتطرقت لموضوع المزرعة مباشرة.

-أنا بحثت موضوع تقسيم المزرعة، وهو ما ينفعش دلوقتي لكن ممكن بعد ما نجمع المحصول....

قاطعها خالد بصوت هادئ يغلفه الحنان :

-أنا اتصلت عشان اطمن عليكي لكن المزرعة دي بتاعتك يا بنت عمي... المهم إنت بخير؟؟

شعرت ليلى بالخجل من نبرات صوت خالد الحانية، ومن كلماته الرقيقة .

-خالد أنا... أنا آسفة..

أحس خالد بالضيق يسيطر على نبرات صوت ليلى، وإنها ستنفجر في البكاء بين لحظة، وأخرى، فسألها خالد بلهفة:

-إنت بخير ؟

تنهدت ليلى

- آه... شوية مشاكل في الشغل، لكن كله تمام... المهم إنتم كلكم بخير، وجدتي عاملة إيه دلوقتي ؟

لم يلتفت خالد لرغبة ليلى في تحويل مجرى الحوار، وسألها عن تفاصيل حياتها :

-إتغديتي؟

-لسه.

-ليه الوقت إتأخر إنت دايما كده مهملة في نفسك.

انفجرت ليلى غاضبة، فمن خالد هذا حتى يسألها عن تفاصيل حياتها، وينتقد تصرفاتها بل يوجهها في الوقت ذاته.

-هو أنا دايما كده مش عجباك، وكل تصرفاتي شايفها غلط، والله أنا مش عارفة إيه هيه منظومة القيم بتاعتك دي إيه.

صمت خالد قليلًا، ورد عليها بصوت هادئ، وحاسم:

-منظومتي إننا عيلة، ولازم نسأل على بعض..

اضطربت ليلى خجلا

-خالد...أنا... أنا مش عارفة...

قاطعها خالد

-ليلة واضح إن عندك مشاكل كتيرة .

حاولت ليلى الكلام، لكن خالد لم يعطيها فرصة.

-أنا مش حاأضغط عليكي لكن لما تحبي تتكلمي أنا تحت أمرك..

شعرت ليلى بسعادة خفية، ونظرت لريم بتباهٍ، فصديقتها التي تعيش وسط أسرتها، ولديها أب، وأم، وأخ دائمًا ما تشكو من أنها لا تجد من يهتم بها، وها هي ليلى تحيطها عائلتها، وتسأل عنها، وتهتم بكل تفاصيل حياتها..

ملأ الفخر ليلى، وهي تتحدث لريم عن خالد، وعائلتها في الصعيد...

(٦)

اتخذ د/ محمد شكلًا جديدًا في تهديداته لليلى، وشاركه من لهم مصلحة في تهديدها حتى لا تشهد بالحق أمام النيابة خاصة أنه تم استدعاؤها، وستمثل للشهادة بعد يومين.

كانت التهديدات واضحة، وصريحة بعدم حصولها على أي درجة علمية، ونقلها من عملها لوظيفة إدارية، وتحويل حياتها العملية إلى جحيم... كان أصحاب المصلحة يتوعدونها بأنهم سيفتكون بها، ولن يضار أحدهم، فمن يحمونهم كثيرون، أما هي فلا أحد معها... كانت ليلى ترتجف كلما رن هاتفها، وتسرع بإغلاقه بعد سماع التهديدات، وكل أوصالها متجمدة من غلظة ما يقولونه، وصدمتها في كل من يحدثها...

ظلت ليلى طوال يومها تفكر فيما يدور حولها... لماذا تقذف بنفسها في هذا الجحيم، لتشهد بما يريدون، وتحصل على الدكتوراه، وكل المميزات في العمل... لقد وعدوها بمنحة للدراسة في الخارج، وحتى إن لم ينفذوا وعدهم يكفي أنها سترحم نفسها من الجحيم الذي ستتردى فيه...

من لديها تخشى عليه حتى تحارب الفساد، وتحد من جبروته... ليعم الفساد، أو لا يعم ماذا ستستفيد؟! وماذا لو قتلوها كما هددوها؟!

وقتها ماذا ستكون قد حققت؟! وقتها سينتصر الفساد، وهي سترقد في التراب... يا لها من فتاة حالمة !!

كانت ليلى تتجول في بيتها، وهي تفكر في أمرها حتى وقع بصرها على صورة والدها، فأخذتها، وحدثت والدها بكل ما يدور في ذهنها، لكنها لم تجد أي إجابة... قضت ليلى ليلتها ساهدة، والحيرة تضج مضجعها.

في الصباح الباكر ذهبت ليلى إلى المزرعة علها تجد القرار الصائب... هناك فوجئت بحضور خالد، فقد كان يسأل عنها كل يوم، وما أن علم بذهابها حتى حضر مسرعًا معللًا ذلك بأنه أحضر لها حقيبة أوراقها التي نسيتها في منزلهم.

كانت ليلى شاحبة الوجه... شاردة الذهن، ولم تكن لديها استعداد لأية مشاحنات مع خالد، فظلت تنظر له متفحصة إياه، فهو الوجه الآخر لعملة الحق... إن كانت أخفت حقه في التركة لأنقذت نفسها من جحيم المشاحنات معه، وتملكت المزرعة كاملة... وهكذا أرض، ومال، وبعثة، ومركز، أم عملة الحق، وعليها الاختيار...

غرقت ليلى في بحار التفكير، ولم ينقذها غير صوت خالد يسألها بلهفة:

-مالك يا ليلة؟

ظلت ليلى شاردة ثم تحدثت بصوت عميق، وكأنها تحدث نفسها :

-خالد لو عندك في كفة أرض، ومال، ومركز، وجاه، وفي الكفة التانية كلمة حق... تختار إيه ؟

نظر لها خالد بعينين ثاقبتين، وتحدث، وكأنه قاض يصدر حكمه:

-أنا مش مهم لكن ليلة بنت عمي إللى سافرت بلاد عشان تدي ناس حقهم إللي هم أصلا ما كنش عندهم فكرة عنه... ليلة تختار إيه غير الحق.

بدأت الدموع تغرق مقلتي ليلى، ثم سقطت على وجنتيها... تحطم قناع القسوة من فوق وجه خالد، وملأت دموع اللهفة، والخوف مقلتيه، ولم يدر ماذا يفعل... هل يطوقها بذراعيه علها تجد الأمان أم يضمها إلى صدره لينزع من قلبها كل خوف، ويأخذه هو بدلًا منها أم الأفضل... ما هو الأفضل؟!

وبدون أن يدري وجد يديه تمسحان الدموع من على وجنتي ليلى، وظلت رأسها بين يديه للحظات، وهو يردد بخوف، وألم :

-إلا البكا يا ليلة... إلا البكا يا بنت عمي.

انتبه خالد إلى ما يفعله، فترك رأس ليلى، وهو يهمس معتذرًا، لكنه ظل يطوقها بنظراته الدافئة... تمالكت ليلى نفسها، وجلست على أحد المقاعد بشرفة الاستراحة، مضى وقت ليس بالقصير، وليلى تجلس صامتة، وخالد يجلس بجوارها لا يتكلم... ينظر لها منتظر أن تزيح جبل الهموم من على كاهلها، وتلقي به على كاهله... ليحمل خالد كل جبال الدنيا، وتختفي الدموع من مقلتي ليلى.

وكأن ليلى شعرت بما تشي به عينا خالد، فابتلعت دموعها، وحكت لخالد عن دائرة السوء الملتفة حولها .

-المفروض إني حا أروح النيابة بكرة، وأنا مش عارفة أعمل إيه... لا.. لا أنا ما كنتش عارفة لكن دلوقتي أنا عارفة كويس إيه إللي حا أعمله...

خالد شكرًا.

بذل خالد جهدًا كبيرًا لإخفاء نبرات الحزن في صوته

-ربنا خلق العيلة عشان كده.

لم يترك خالد ليلى تعود إلى القاهرة بمفردها، فقاد سيارتها حتى أوصلها إلى بيتها، وتأكد من أنها أحكمت إغلاق الأبواب، والنوافذ... وبعدها عاد إلى الفيوم ليستقل سيارته، ويتجه إلى بيته بالمنيا.

ما إن وصل خالد إلى بيته حتى اتجه مباشرة إلى حجرة نومه، واستلقى على فراشه، وراح في نوم عميق لكن بعد مرور ساعات معدودة استيقظ من نومه فزعًا، وهو يشعر بصدره ينقبض، ويئن من الضيق، فحاول أن يستنشق كمية كبيرة من الهواء لكن قلبه كان يخفق بشدة، وبدون وعي أسرع بالاتصال بليلى.

ردت عليه ليلى وهي تصرخ :

-إعملوا إللى تقدروا عليه... عايزين تقتلوني إقتلوا... أنا خلاص زهقت، وياريت أموت على الأقل حا أكون جنب بابا .

اعتصر قلب خالد، وملأته كل مشاعر اللهفة، والحزن، والألم، لكنه أخفى كل هذه المشاعر، وحاول أن يتحدث بصوت هادئ، لكن الدموع الحبيسة استطاعت أن تلون نبرات صوته.

-ليلة...أنا خالد.

ما أن أدركت ليلى أن محدثها هو خالد حتى انهارت باكية، وظلت لفترة تبكي، وخالد يردد:

-إلا البكا يا ليلة... إلا البكا.

هدأت ليلى قليلًا... وتحدثت باضطراب:

-آسفة يا خالد ما عرفتش إنك إنت... النور مقطوع... لا همه إللي قطعوه... والتليفونات ما بطلتش رن... حاولت ما ردش لكن بعتوا رسايل كلها.... خالد دول بيهددوا بموضوع ماما... خالد أنا خايفة الدنيا كلها ضلمة....

-إهدي يا ليلة... إهدي أنا معاكي، ومش حاسيبك، ياللا روحي على سريرك، وأنا معاكي على التليفون.

شعرت ليلى ببعض الطمأنينة من وجود خالد بجوارها، فحدثته بصوت خال من الدموع:

-خالد شكرًا... أنا أزعجتك لكن...

قاطعها خالد بحزم، وبدأ كعادته في إلقاء الأوامر عليها :

-على سريرك، وأنا معاكي لحد ما تنامي... تحبيي أقرأ لك حاجة ؟

لم تجبه ليلى، بل عادت للحديث الخائف عن التهديدات التي تحاصرها :

-خالد دول بيهددوا بموضوع ماما... خالد الموضوع ده لو.... إنت عارف... أنا...

قاطعها خالد بصوت حنون:

-إهدي يا ليلة... الحاجة إللي أنا عارفها دلوقتي إن عندي كام قصة حب من بتوع سوزان، وأنا حا أقرأ لك واحدة لحد ما تنامي.

أخذ خالد يقرأ لليلى بصوت هادئ رخيم حتى راحت في ثبات عميق... كان الوقت قد تأخر، وأعلن الفجر عن نفسه، ووصل إلى مسامع

خالد صوت الآذان، فذهب إلى الجامع ليصلي، ويدعو لابنة عمه، وأوصى إمام الجامع بأن يدعو لها لكي يفرج الله كربتها، ثم أمر السائق بأن يجهز السيارة للذهاب إلى القاهرة فقد كان يشعر بالتعب مما قام به بالأمس.

عندما استيقظت ليلى تذكرت كل ما مر بها في الليلة السابقة، فابتسمت، وهي تنظر للهاتف الذي كان بجوارها، وتذكر ما فعله خالد معها... نظرت ليلى إلى صورة والدها التي تضعها بجوار سريرها، وتحدثت إليه.

-مش حا خليك تخجل مني.

غادرت ليلى فراشها، وقد عزمت أمرها... حرصت على أن تبدو في قمة تأنقها، وملأت نفسها بالثقة، وسارت بخطوات ثابتة، وهي تغادر منزلها، وكم كانت دهشتها عندما رأت خالد يقف منتظرًا إياها أمام باب المنزل، ويفتح لها باب السيارة، وهو يبتسم لها .

-صباح الخير يا ليلة.

ردت عليه ليلى بابتسامة خفيفة، ولم ترغب في أي كلام إلا أمام النيابة... احترم خالد رغبتها، وجلس صامتًا بجوارها... عندما وصلا إلى مقر النيابة اصطحب خالد ليلى، وأمر السائق بالذهاب لأي مكان ليستريح، وهو سيتصل به بعد ذلك عندما يقرر العودة.

لم تنظر ليلى لخالد، أو لأي شخص آخر، وظلت واقفة جامدة الملامح حتى دلفت إلى حجرة وكيل النيابة.... ظلت ليلى لفترة طويلة عند وكيل النيابة، وخالد ينتظرها في الخارج يلقي سهام نظراته القاسية على المنتظرين دورهم في الإدلاء بالشهادة.

كانوا يتحدثون همسًا في هواتفهم، وكأنهم يرتبون ما سيقولون، وعلت وجوههم كل ملامح التوتر، والخوف... يا لهم من سفلة... المفروض أن يخجلوا من أنفسهم...ياه... أكل هؤلاء السفلة، ومن ورائهم يتربصون بليلى.... انتفض خالد عندما جال بذهنه هذا الخاطر... رنت في أذن خالد كلمات عمه، وهو يعطيه ليلى ليحملها

-خلي بالك ما تخلهاش تعيط... إلا البكا.

«آه يا ربي ماذا فعلت بابنة عمي... كم تسببت في بكائها... لا... لا أنا لم أقصد أبدًا أن أتسبب في أي حزن لها... لكن ألا يكفي أنني سمحت للآخرين بأن يكدروا صفو حياتها.... أي رجل أنا حتى لا أفي بعهدي مع عمي؟!»

خرجت ليلى من مكتب وكيل النائب العام مرفوعة الهامة، وكأنها قائد منتصر في كبرى المعارك.... أسرعت الخطى لتغادر المكان... جلست ليلى بجوار خالد في السيارة صامتة لا تشعر به، فقد كانت في حالة روحانية خاصة، ثم بدأت تناجي ربها بصوت مسموع، فأغلق خالد نوافذ السيارة، ولم ينطق بكلمة حتى لا يخرجها مما هي فيه.

شكت ليلى لله كل ما مر بها... لم تكن شكوى فحسب بل وصف لحالتها، ودعوة لله...أخرجت كل ما في قلبها، وهي تناجي ربها.

-يا ربي في أقل من سنة..بابا مات... بابا كان كل حياتي، وراح...، وأنا بقيت وحيدة وسط غابة أشجارها عالية... أوراقها كثيفة حاجبة ضوء الشمس... وكلها أصوات غريبة لحيوانات جامحة، وطيور جارحة لونها أسود... الكل هدفه النيل مني، أنا مستقبلي مجهول : الدكتوراه تجربتها

دمرها مستبد، والرسالة قضى عليها فاسد، والمزرعة قسمتها حسب أحكام الشريعة، وشهادة الحق معناها جحيم لا طاقة لي به، وكشف أسرار الأموات.... آه يا رب يا رب أنت العدل، وأنا أطعتك، فارحمني يا أرحم الراحمين.

كانت مناجاة ليلى أشبه بالسياط تلهب ظهر خالد... أهكذا تراه مستبد، ولا تشعر بأن أحد لها... لماذا ؟!.... ماذا فعل حتى تشعر هكذا ؟! يا له من وغد حقير يسيء إلى ابنة عمه... عمه الذي يحبه حبًا جمًا...أهذه هي وصية عمه له ؟! هل نسى بما أوصاه؟

كان ذلك بعد انتهاء عزاء والده... كان الحزن، والظلام يخيمان على المكان، وخالد مع عمه يقفان في حديقة المنزل يعتصر الألم قلب كل واحد منهما... تنهد العم في أسى ثم تحدث بحزم لخالد:

-بنتي ليلة أمانة بين أيديك... أوعى تسبها خليها دايما في رعايتك.... هي دلوقتي ما لهاش حد غيرك.

رد عليه خالد باستنكار :

-إحنا كلنا في رعايتك يا عمي، وربنا يديك طولة العمر لحد...

قاطعه العم بحدة، ونفاذ صبر:

-خالد ده مش وقت مجاملات...

أخرج العم مصحفًا من جيبه، ووضع يد خالد عليه، وأمره بحسم:

-احلف إنك تحافظ على بنت عمك، وتحميها..

وبحزم رد منفذًا أوامر عمه..

-والله العظيم أنا مش حا سيب ليلة أبدًا، وأنا دايما حا أرعاها.

«آه يا خالد ها أنت تنفذ وصية عمك على أكمل وجه !!! يا لك من وغد حقير.»

استمر خالد يجلد نفسه، وليلى تناجي ربها... كان خالد يقود السيارة بلا هدف، ولا يعرف أين يذهب، فقد كان كل هدفه أن يظل بجوار ليلى، وأخيرًا سألها :

-ليلة تحبي نروح فين ؟

-سيدنا الحسين... خدني إلى مقام سيد الشهداء.

أسرع خالد بتنفيذ ما تريده ليلى، وبعد أن خرجت من المقام شعر خالد بتغير كبير طرأ عليها، فقد تبدلت ملامح وجهها، وظهرت عليه ملامح السكينة، ولأول مرة يرى وجهها تعلوه الإشراق، وهي تبتسم له... تهلل وجه خالد فرحًا..

-يا بركة النبي... فعلًا الحسين سره باتع.

-أنا جعانة.

شعر خالد بسعادة كبرى، وهو يصطحب ليلى إلى أحد محلات الكباب المنتشرة في منطقة الحسين... لم يكن لدى ليلى رغبة ملحة في تناول الطعام، لكنها وجدتها فرصة للحديث مع خالد فيما يمكن أن يتعرض له من متاعب لشراكته معها..

-يمكن يحرقوا الفيلا، أو المزرعة أو الاتنين عشان كده من الأفضل أن نبيع الفيلا، وتاخد نصيبك، وأنا أعيش في شقة صغيرة... وبالنسبة للمزرعة جميع الخسائر تخصم من نصيبي إنت ما لكش ذنب.

لاحظ خالد أن ليلى لا تتناول الطعام، فنحى طبقه جانبًا، وأخذ يطعمها

كما لو كانت طفلة صغيرة....فاجئ تصرف خالد ليلى، وحاولت إيقافه لكنها لم ترد أن يضيع الوقت في مهاترات، فسايرته، وكأنها طفلة تحب أن يدللها من حولها، واستمرت في مناقشة ما ينتظرها من تهديدات، لكن خالد لم يكترث بكل ما ذكرته مما قد يتعرضا له من أعمال البلطجة... أثار ليلى تعامله مع الأمر ببرود، فسألته بحدة :

-إنت مش هامك إللي حا يحصل؟!

رد عليها بهدوء، وهو يطعمها :

-وده يجي إيه جنب لما عيلة تهيج على التانية عندنا في الصعيد، ولأسباب ما فيش أتفه منها.

أطرقت ليلى مفكرة فيما يقوله خالد، وهل هو يحاول أن يهون عليها الأمر، أم أنه فعلًا أقوى من كل التهديدات ... عله يحاول أن يفهمها أنها بالنسبة له مجرد فتاة ضعيفة هشة أفزعها نباح كلب في الطريق، والأمر لا يستحق كل ما عانته في الأيام الماضية ؟! ولم لا ألا يعاملها كطفلة مدللة، ويطعمها بيده...

-كفاية يا خالد والله أنا مش عارفة إنت حا تعمل إيه بعد كده.

تحدث خالد بتلقائية أقرب إلى السذاجة، وكأن السنوات لم تمض.

-أبدًا زي ما عمي قالي أحطك على صدري، وأطبط على ظهرك عشان تتكرعي...

اتسعت عينا ليلى، لكن اضطراب خالد، وتلعثمه دفعا ليلى للابتسامة.

-على فكرة إنت بتاكل بالشوكة، والسكينة كويس جدًا

-يعني مش صعيدي مستبد.

شعرت ليلى بالإحراج البالغ.

-هو أنا كان صوتي عالي ؟!

نظرت ليلى لخالد متسائلة، ولأول مرة تلتقي عيناها بعيني خالد... أحست ليلى بأن هناك شيئًا غامضًا يشدها للغوص في هاتين العينين السوداوين...لم تحاول ليلى المقاومة، أو لم تقدر على ذلك... أما خالد فقد توقف به الزمن، وهو يرى عيني ليلى تلمعان، وكأنهما نجومًا متلألئة تجمعت فوق وجه القمر في ليلة صافية السماء يعتقد المخطئون أنها مجرد ملامح وجه جميل لفتاة بيضاء البشرة لها شعر أسود طويل، لكن هل هي حقًا فتاة عادية أم تراها الجنية الطيبة التي طالما حكت له جدته عنها في الحكايات، وها هي عيناها المتلألئتان ترسلان له النجوم لتحقق له كل الأحلام.

وبعد فترة صمت استطاعت ليلى أن تفر من أسر عيني خالد، وعادت تحكي له عما تتعرض له من تهديد بفتح ملف قصة والديها... روت له بصوت خافض متردد قصة والدتها، وحب والدها لها، وكيف حارب الدنيا كلها من أجل حبه، ورفض أهلها زواجهما وفرارهما معًا ليتزوجا في بلد آخر عمل فيها والدها باجتهاد، فقد كان تخصصه نادرًا، كما أنه كان عبقريًا، وقد نعم الحبيبان بالسعادة الغامرة التي توجها رازقهما بفتاة صغيرة، لكن سرعان ما انقلب كل شيء عندما علمت عائلة الأم بمكانها، ودبرت حادثة وفاتها، ففر الوالد بابنته إلى مصر، وذهب طالبًا حماية والده.

-وطبعًا إنت عارف باقي القصة.

-لكن عمي عمره ما خبرنا بموضوع وفاة مراته.

-يمكن رفض جدي له منعه.

-لكن فيه حاجة غريبة إيه المشكلة في بلاد أوربا كلها لو إتجوزت واحدة من بناتهم من مصري.

صمتت ليلى قليلًا، وخفضت صوتها لتبوح له بسر والدتها

-والدتي ما كنتش فتاة عادية دي كانت من الأسرة الملكية...كانت أميرة، وكان ترتيبها متقدم في العرش.

-آه زي الأميرة ديانا، وقصة حبها لعماد الفايد، وموتهما الغامض.

-لكن ماما قبل ديانا،لكن حادث ديانا فتح موضوعات كتيرة في الصحف الأجنبية عن قصص حب أميرات أوربا، وكانت حكاية والدتي من ضمنها، وقتها عرفت من بابا كل إللي حصل.

نظر لها خالد بوجه تعلوه الابتسامة مما أغضب ليلى... لاحظ خالد تغير ملامح وجهها، فحدثها مفسرًا الأمر

-معلش يا بنت عمي، لكن إنت فعلًا أميرة بنت أميرة.

بادلته ليلى الابتسامات، ثم حدثته بشجن.

-همه دلوقتي بيهددوا بنشر القصة...

-طب، وماله يا ليلة ؟! إحنا إللي معنا الحق، فنخاف من إيه؟!

أغضب تعليق خالد ليلى، وظهر ذلك على ملامحها فسألته عيناها

-ماذا يا خالد ؟! هل تريد الاستخفاف بمشاكلي، ومخاوفي لتظهر أمامي بصورة الرجل القوي الذي لا يقهر، أم تراك تريد استعراض قوتك

أمامي لأرضخ لإرادتك؟! فلا يمكن أن كل هذه التهديدات التي من المؤكد أنها ستحدث، أو على الأقل سيحدث جزء كبير منها... كل هذا لا يحرك لك ساكنًا....

ردت عينا خالد على عيني ليلى الحائرتين.

-صغيرتي لا تخش شيئًا لن يستطيع أحد أن يمسك بسوء... سأكون فداءً لك دائمًا.

شعرت ليلى بالطمأنينة تتغلغل في نفسها، فتبدلت ملامح وجهها، وعلت الابتسامة التي انعكس ضوءها على وجه خالد....

اتصل خالد بالسائق ليقابله بالقرب من ميدان الحسين، وأثناء انتظاره للسائق دعا ليلى للتنزه في المنطقة، سارت ليلى بجوار خالد وهي يتملكها شعور غامر بالأمان، فاختفت كل همومها، وعادت لطبيعتها المرحة، وعادت الضحكات تملأ وجهها، فاشترى لها خالد شالًا ألوانه مبهجة كدعوة منه لتنهي حالة الحداد، وتعود إلى دنيا السعادة.

كانت ليلى تحب المرح، والضحك، ولا تعرف ما هو الوجوم، لكن الأيام أبت إلا أن تجعلها تذوق كل أشكال الحزن، والعذاب... لكن هل يستطيع خالد أن يمحو كل ذلك، وينفذ وصية عمه ؟!

ها هو يبدأ الطريق مع إشراق وجه ليلى، لكن هذا لم يكن سوى استراحة قصيرة بين فصول الحزن، والقلق، فما أن حضر السائق تأكدت ليلى بأن خالد سيعود إلى الصعيد وقتها عاد الوجوم يغزو وجهها، ودون تفكير أمسكت ليلى بيد خالد، وكأنها طفلة صغيرة تخاف أن تضل طريقها، فتمسك بيد من هو أكبر منها... أحس خالد بجميع مشاعر ليلى، فترك لها يده.

ظلت ليلى متشبثة بيد خالد حتى، وهي تستقل السيارة...جلس خالد بجوارها، وأمر السائق بالانطلاق، ولم يحدد له وجهة، لينطلق فحسب... أحست ليلى بالراحة والأمان، وهي تجلس بجوار خالد ممسكة بيده، وشعرت بأن متاعب اليومين السابقين قد تجمعت عليها، فأمرها النوم أن تذعن لإرادته، فلم تقاومه.

أسندت ليلى رأسها على كتف خالد، وراحت في ثبات عميق... دثر خالد ليلى بالشال الجديد بإحدى يديه، وظل تاركًا اليد الأخرى لليلى ممسكة بها... شعر خالد بالراحة، وليلى نائمة بجواره في هدوء، فرجع برأسه للخلف، واستسلم هو الآخر للنوم العميق.

(٧)

كان الليل قد أعلن عن نفسه صراحة، وخيم الظلام على المكان عندما وصلت السيارة إلى منزل العائلة بالصعيد... استيقظ خالد عندما توقفت السيارة، وأخذ يهمس لليلى.

-ليلة إحنا وصلنا خلاص.

كان النعاس لا يزال مسيطرًا على ليلى، فردت عليه، وهي مغمضة العينين

-شوية يا توتة يا حبيبي شوية... أنا لسه عايزة أنام.

أدرك خالد أن ليلى لم تستيقظ بعد، وتحدثه، وهي نائمة، لكنه كان سعيدًا، وهي تدلل إياه، وتدعوه حبيبي.

-ليلة...ليلة إحنا وصلنا.

فتحت ليلى عينيها، فأصابها الفزع، وانتفضت معتدلة

-أنا فين ؟؟

كانت ليلى مازالت ممسكة بيد خالد، فتركتها، وهي تشعر بالارتباك... ابتسم خالد لها، وحدثها بصوت هادئ رخيم

-أنت أسيرتي الآن أيتها الأميرة، ولا مفر أمامك.

ضحكت ليلى، وكأنما أسعدها هذا الأسر... كان التعب مازال مسيطرًا عليها، فصعدت مباشرة إلى الحجرة التي سبق، وباتت فيها، وألقت بنفسها على السرير غارقة في النوم.

اجتمع خالد مع والدته وجدته في جلسة مغلقة، و حكى لهما الوضع الحالي، وما تواجهه ليلى من تهديدات.

-أنا جبتها هنا عشان تقعد عندنا لحد يوم المحاكمة، لكن أنا لسه ما قلتش لها حاجة... عشان كده أنا عايز منكم تحايلوها عشان توافق تفضل معانا، ومش عايز أية واحدة تفتح لها موضوع القضية، والتهديدات.

تبادلت الأم، والجدة النظرات، وكانت سعادتهما كبيرة، وهما تستمعان لحديث خالد عن ليلى، واهتمامه بها.... كان أول شيء فعله خالد أن أحضر لليلى على وجه السرعة مجموعة من الملابس، أحضرها من كبرى المحلات التي يتعاملون معها في القاهرة، وبذلك لا تشعر ليلى بأنها تحتاج لأي شيء، وكم كانت دهشتها، وهي ترى تلك الملابس، واندهشت أكثر لأنها كانت ملابس ملونة...

حاولت ليلى الاعتراض لكن عواطف لم تترك لها أي مجال للاعتراض... كان حنان عواطف، وما أظهرته من إعجابها بشكل ليلى بالثياب الملونة كافيان بجعل ليلى تخفي عدم قناعتها بما فعله خالد، فلم تكن الملابس تعجبها، فما أحضره خالد لها من ملابس يختلف عما اعتادت أن ترتدي إياها، لكن هذا لم يكن السبب في رفض ليلى لما فعله خالد السبب الرئيسي هو كيف في لحظة يقرر هو أن تنهي الحداد... هل سيتدخل في حزنها على والدها ؟!

انتظرت ليلى قدوم خالد في المساء، وجلست معه في حديقة المنزل لتعرف منه ما يدور حولها، ولماذا أحضرها خالد إلى الصعيد؟!... لم يرغب خالد في البداية أن يخبرها بقراراته بشكل مباشر، فتعمد استخدام الألفاظ المنمقة، والعبارات الفضفاضة، لكن ليلى لم تقتنع بهذا الأسلوب، فلم يجد خالد أمامه مفر من الحديث المباشر معها.

-يعني يا ليلة إنت حا تفضلي معانا لحد يوم المحاكمة ده أكتر أمان لك.

رمته ليلى بنظرات نارية، واندفعت في الحديث.

-يعني إيه إزاي إنت تقرر عني موضوع زي ده... وبعدين إزاي تقرر إني ألبس ملون.

حاول خالد التزام الهدوء

-ليلة لازم تبقي معانا ما ينفعش تفضلي لوحدك وسط التهديدات... وبعدين إيه موضوع الأسود، والملون إحنا عارفين الصالح، والتقاليد دي إحنا إللي بنحطها.

تملك الغضب ليلى، فانفجرت ثائرة.

-إنت بتتحكم كده في كل إللي حواليك، ولو تقدر تحدد لهم كل خطوات حياتهم حتى أحلامهم في النوم قبل اليقظة.

أثارت كلمات ليلى غضب خالد، لكنه تمالك نفسه، وحاول اصطناع الهدوء، إلا أنه لم يستطع ذلك طويلًا، وظهر انفعاله في طريقة كلامه.

-يعني إنت لسه مصرة على إني مستبد .

ردت عليه ليلى بحدة، وحزم :

-فعلًا إنت مستبد، لكن مش من حقك الاستبداد، واستحالة إني أقبل الخضوع لاستبدادك.

غلت الدماء في عروق خالد، ولم يحاول بذل أي مجهود في كظم غيظه، وارتفعت نبرات صوته .

-والله يا ليلة يا بنت عمي رجالة بشنبات ما يقدروا يقفوا ويقولوا كلامك ده.... دول كانوا لا فوق الأرض، ولا تحتها.

رمته ليلى بنظراتها النارية، وتركته، وأسرعت إلى حجرتها، وقد أيقنت أن خالد يمارس كل أساليب القهر، والاستبداد معها سواء بالاستخفاف من مخاوفها أو الثورة عليها، وتهديدها صراحة بأن التدمير هو عقوبة كل من يعارض قراراته، ولا يخضع لإرادته.

عقدت ليلى العزم على مغادرة ذلك البيت مهما كلفها الأمر... لتكن هذه الليلة هي آخر ليلة لها هناك... رأى خالد هذا القرار في عيني ليلى اللتين كانتا يملأهما التحدي، فاتجه إلى والدته لتكون هي وسيلته للضغط على ليلى حتى تعدل عن قرارها.

أدركت عواطف أنها مهما حاولت، فلن تستجيب ليلى لها بعد تعنت ابنها معها، فأفضل ما تفعله هو اللجوء إلى الحيلة... ما إن أشرقت الشمس، وبدأ نورها يعم المكان انطلقت الصيحات بالأخطار التي ألمت بالحيوانات في عدد لا بأس به من الأماكن، وأصبح الكل فجأة يستنجد بالدكتورة ليلى التي تخلت مؤقتًا عن خطتها، وذهبت تؤدي عملها.

أقبل خالد ليحتسي الشاي مع والدته بعد الإفطار، ووجهه مشرق بالابتسامات.

- والله يا حاجة، ولا أعظم جهاز مخابرات يمكن يعمل إللي عملتيه.

ردت عليه والدته بالابتسام.

-مخابرات إيه يا عمدة دا كل الناس حبايبنا، وكل الحيوانات عندها مشاكل، وعايزة أيام لعلاجها المهم يا خالد لازم تصالح بنت عمك بسرعة... الليلة لو تقدر.

عبثًا حاول خالد مصالحة ليلى التي لم تلتفت له، وهي عائدة للمنزل بعد يوم عمل شاق، فتركته، وصعدت إلى حجرتها...

كان جو الأسرة جديدًا على ليلى، فقد اعتادت على الوحدة حتى أثناء حياة والدها، كانت كثيرًا لا تتفق مواعيدهما معًا، لكن الآن الوضع اختلف، فهي تعيش وسط أسرة كبيرة، وعليها الالتزام بجميع قواعدها الصارمة في مواعيد الاستيقاظ، وتناول الطعام، ومشاهدة التلفزيون، والجلوس معًا لاحتساء الشاي أو القهوة...

عندما تخرج أو تذهب لأي مكان الكل يسألها أين ستذهب، وعندما تعود الجميع يسألها عن يومها... شعرت ليلى بالضيق، وأن حريتها مقيدة، وكانت نظرات خالد لها في لقاءاتهما الإجبارية تزيد من شعورها بالأسر، فماذا يبقيها في هذا الجو الخانق لتغادر المكان في الحال، ولا داع للتحجج بأن لها أهمية قصوى، فالحيوانات منذ القدم تعاني من مشكلات، وليلى ليست الفارسة المنتظرة لنصرتها.

حقًا لقد لاحظت كم الإهمال الذي تعانيه الحيوانات، وعدم اتباع الأساليب الصحية في التعامل معها مما يؤثر سلبيًا على الإنسان قبل الحيوان، لكنها في الوقت ذاته واجهت استهجان، وسخرية مما تقوله،

فماذا يبقيها، لتعود إلى بيتها، فمهما كان حجم التهديدات التي تواجهها، فميراث الجهل في تلك المنطقة سيجعل دائمًا هناك حاجزًا بين بنت «الخواجاية» ، والمقيمين فيها... لقد كانت ترى هذا الحاجز في عيون كل من حولها، إذا تحدثت عن أي شيء خاص باتباع الأساليب الصحية، ورغم أن ليلى كانت تجد عذرًا لكبار السن فقد كانت تشعر بالضيق الشديد من موقف الشباب الرافض بسخرية لكل ما تقوله أو تفعله.

وكم أظهرت سوسن سخريتها منها، وكانت تعلق دائمًا على ما تفعله.

-أصل إنت مش مننا، وبتقولي حاجات بلاد برة.

حاولت ليلى إقناعها، لكنها وجدت صد رهيب، وتبديل لمعاني أي كلمة تقولها، فتأكدت ليلى كل التأكد أنه لا مكان لها في هذا المكان... عقدت ليلى العزم على السفر في اليوم التالي، فذهبت لتودع الحيوانات، وتعطي تعليماتها الأخيرة لعل القائمين على تلك المخلوقات يستجيبون لها.

أثناء متابعة ليلى للعمل أحست بشخص يقترب منها، فالتفت له لتجد خالد أمامها... كان خالد يرتدي جلبابًا، وعباءة، فظهر لها في صورة الإقطاعي المتكبر الذي دفن قلبه وسط أراضيه الشاسعة... رمته ليلى بنظراتها الحادة .

-في حاجة ؟!

رد عليها خالد، وهو يحاول استرضاءها :

-حتى الدول إللي بينها حروب بتجلس على مائدة المفاوضات،

ويمكن يوقعوا معاهدات سلام.

-آه دول، لكن أنا أسيرتك، وإنت مصر على فرض سيطرتك.

-أنت أميرتي يا ليلة.

نظرت له ليلى بحدة، وتركته، واستمرت في عملها كإشارة له بأن يغادر المكان، لكن خالد وجه لمن في المكان نظرات حادة، فغادروه مسرعين... تحدث خالد لليلى بتكبر.

-ليلة لازم تفهمي...

قاطعته ليلى بحدة

-خالد ما ينفعش يكون بينا أي حاجة عشان أفهم، ولا ما فهمش.

وجم خالد من رد ليلى.

-يعني إيه ؟!

-كلامي واضح أنا مش منكم... أنا بنت الخواجاية، وكل إللي بعمله مش عاجب حد، ولا إللي إنت بتعمله عاجبني يبقى أفضل معاكم ليه ؟!

-طب والتهديدات ؟

-ليا رب اسمه الكريم... كمان إنت ما عملتش حاجة غير أسلوبك إللي أنا رفضاه تسجن البريء أو تأسره، وكده تريح ضميرك.

-أنا بحمي الناس إللي بحبهم يعني لو تركتهم، وحد أذاهم حتى لو قتلته ، ونزعت أصله من جدوره، وقتها حارفع الأذى إللى أصابنا ؟!

ردت عليه ليلى بسخرية.

-أسهل أحول الناس لدمى أحركهم زي ما أنا عايز باسم الحماية،

والأمن... طب لو حصل لك مكروه لا قدر الله الناس إللي حواليك يعيشوا إزاي ؟!... شوف ياخالد أنا أحسن حاجة ورثتها عن والدي هو إني أكون قوية أقدر على المواجهة، لكن إنت ورثت الاستبداد، وده الميراث الوحيد إللي لا يمكن نتقاسمه يا ابن عمي.

لم تلتفت ليلى إليه، وإنما ركزت في عملها... غادر خالد المكان، وكله يقين من أن ليلى ستفر منهم، ولابد أن يحاصرها من كل اتجاه، لكن لماذا يفعل معها ما يفعل ؟!...

ظل خالد يسأل نفسه هذا السؤال، والغضب يتملكه.

«لماذا أفعل معها ما أفعله ؟! لماذا أهتم بها، وأحرص على حمايتها؟!...

لقد وقفت بجوارها، ومددت لها يدي، لكنها تقابل ذلك بالتكبر، فلتعود إلى ديارها، وما بيننا من ميراث لا يستحق أي عناء إنه ميراث كان مجهولًا، فليظل مجهولًا، ولتختفي صاحبته معه... حقًا لقد أوصاني عمي عليها، وقد حاولت مرات عديدة تنفيذ الوصية، لكن ليلة عنيدة... نبات غريب وسطنا... تنظر لنا بتعال، وتكبر حتى الخفير الذي يصاحبها في عملها كم اشتكى منها، ومن استبدادها معه... لترحل... لترحل في الصباح الباكر كما يحلو لها... هي لا تريد أن تعترف بضعفها، وعجزها، وتحتاج دائمًا للحماية».

شعر خالد بالراحة بعد أن أوصله تفكيره إلى هذا الطريق، وكم كانت سعادته، وهو يتذكرها، وهي تمسك بيده، والخوف يملأها...

«لا يمكن أبدًا أن تكون أي امرأة فارسة منتصرة لابد أن تجد يد رجل

قوية لتمسك بها».

رغم سعادة خالد بما توصل إليه، فقد عز عليه النوم، وظل ساهدًا طوال الليل يعاني من الأرق... كم حاول أن ينكر أن يكون سبب أرقه هو مغادرة ليلى للبيت، لكن هل يغير الإنكار الحقيقة...

لم يستطع خالد العودة إلى فراشه بعد صلاة الفجر، فبقي في حديقة المنزل يتابع منظر الشروق... كان الجو به نسمة خفيفة من البرودة، فقد بدأ الشتاء يدق الأبواب رغم أن حرارة النهار مازالت تلهب الأعصاب..

كان حال ليلى لا يختلف كثيرًا عن خالد، فقد ظلت طوال الليل تعاني من الأرق، وبعد صلاة الفجر مباشرة اتجهت إلى الحديقة لتستنشق هواء الصباح... وجدت ليلى نفسها أمام خالد... نظر لها خالد، والغضب ينطلق من عينيه، وحدثها بنبرة صوت فيها تهكم.

-طبعًا إنت بتتمني دلوقتي إنك ما تشفيناش مرة تانية، ويمكن ندمانة على إنك عرفتينا.

شعرت ليلى بالضيق الشديد من كلمات خالد، فقد كانت أشبه بالنغمة النشاز وسط سيفونية الطبيعة الرائعة عند الشروق.

وقفت ليلى صامتة، وهي تتدثر بالشال الذي أهداها خالد إياه، وقف خالد صامتًا بجوارها، وبعد لحظات سألها باستعطاف.

-ليلة إنت زعلانة ليه ؟

صمت خالد لحظات، ثم تحدث بنبرة ساخرة مما يقوله.

-سؤال غبي ما عليش، لكن يا ليلة أنا عملت كل حاجة عشان مصلحتك، وإنت...

قاطعته ليلى بنظراتها الحادة، فتوقف خالد عن الكلام، ونظر بالأسى لليلى، وهمس.

-إيه يا ليلة هو الكلام انتهى بينا ؟!

لم يدر خالد هل خرج هذا السؤال من صدره أم ظل يتردد داخل جدار قلبه... ظل خالد، وليلى صامتين هي تراقب منظر الشروق، وهو ينظر إليها، وهي لا تلتفت له... قطع حبل صمتهما وصول الخفير المرافق لليلى..

كان الخفير يبدو بهيئة أجمل، وأنظف على عكس المعتاد، فسر الخفير التغييرات التي طرأت عليه بأن الدكتورة ليلى أخبرتهم بأنها ستسافر اليوم، وهداه تفكيره هو، ومن يعملون في الحظيرة، والإسطبل إلى أنهم لو نفذوا كل تعليماتها بدقة، والتي تتركز في الأساس على النظافة وقتها ستظل معهم... كما تعاهدوا على الالتزام بتعليماتها بضرورة مراعاة الحيوانات بشكل يتفق مع التعليمات الصحية.

كان الخفير يتحدث مع خالد بكلمات علمية دقيقة، والسعادة تملؤه لأنه بهذه الطريقة سترضى عنه الدكتورة .

-إحنا ضايقناها كتير، وكنا بنرد عليها، وهي كانت دايما بتعاملنا كويس، وإحنا كنا بنشتكي عشان كده هي زعلت مع إن كل كلامها صح كفاية كلامها عن رعاية الحمير تعرف جنابك لو أهملنا الحمار البراغيت تملاه، ويبقى مصدر للطاعون.

رد عليه خالد بسخرية:

-مصدر الطاعون ؟!

-آه... والله إنكم إستحميتم وحميتم الحمير كمان.

رد عليه الخفير باستنكار.

-لا يا بيه الحمير لها طريقة في الحمى.

لم يستطع خالد أن يخفي نظراته الضاحكة، وهو يتنقل بين ليلى والغضب يملأ وجهها، والخفير بنظراته المستعطفة، لكن ليلى تدخلت في الحوار، وتحدثت للخفير.

-خالد بيتريق عليك، ومش عاجبه حالنا، لكن كويس إللي وصلنا له، وعلى فكرة أنا عمري ما زعلت من حد.

تحدث الخفير مستعطفًا.

-والنبي يا جناب العمدة، ورحمة والدك خلي الدكتورة تبقى معانا على طول.

لم يتمالك خالد نفسه من الضحك، وأشار للخفير بمغادرة المكان، واستمر في ضحكه، وهو يتأمل نظرات ليلى له... كانت مثل القطة الشرسة التي تلمع عيناها، وهي تحاول أن تنقض على من يشاكسها، فسألت خالد بغضب.

-ممكن أعرف كل الضحك ده ليه ؟! هو العلم فيه حاجة تضحك... آه إهمال الحيوانات بتخليها مصدر لكل الأمراض بصرف النظر عن إنها مخلوقات ضعيفة، ولها حقوق.

رد عليها خالد ضاحكًا

-إنت شكلك حلو قوي، وإنت بتدافعي عن الحيوانات.

استمر خالد في الضحك، وتزايدت ضحكاته، وهو يرى ليلى،

وشرارات الغضب تتطاير من عينيها... التقت عينا ليلى الغاضبتان، مع عيني خالد الضاحكتان، فتوقف خالد عن الضحك، وتحدث هامسًا.

-إنت دايمًا كده على طول رافعة سيف الحق.

ردت عليه ليلى بغضب.

-ودي حاجة تضحك ؟!

-لا إللي يضحك إنك بتمارسي الاستبداد إللي سبق ونكرتيه عليا.

اندهشت ليلى من كلام خالد، وامتلأت عيناها بالتساؤلات... اقترب خالد من ليلى، وسبح في بحار عينيها الحائرتين... كانت نسمات الصباح منعشة، لكنها في الوقت ذاته كانت تداعب خصلات شعر ليلى، لكنها لم تهتم بخصلات شعرها التي تتطاير على جبينها، وتكاسلت أن تخرج يديها من تحت الشال، وبحركة لا إرادية، وبدون وعي أزاح خالد خصلات شعرها المتطايرة، ونظر لها مبتسم ابتسامة المنتصر .

-ها قد تقاسمنا ميراث الاستبداد.

أبعدت ليلى رأسها عن خالد بغضب، لكنه واصل حديثه .

-سبق وإتهمتيني بإني مستبد، وأحب أحرك الناس، ودلوقتي إيه إللي حصل شوفي كام واحد بينفذوا إرادتك في أدق تفاصيل حياتهم.

-دي حاجة صح، وبعدين أنا شرحت لهم الموضوع، وهم اقتنعوا.

اخفض خالد من نبرات صوته، وحدثها بصوت أقرب إلى الهمس كأن يريد الخوض في موضوع محرج.

-همه حبوكي، ومش عايزينك تمشي بأي شكل، فنفذوا أوامرك، ولو كان الموضوع اقتناع كانوا عملوا كده من الأول.

أحست ليلى بأن خالد يجيد أمور المجادلة، فلم تناقشه في موضوع الحب، لكن كان كل ما يشغلها لماذا يصفها بالاستبداد، أتراه يقلب الحقائق هكذا بمنتهى السهولة... قرأ خالد في عيني ليلى كل ما تريد قوله، فأجاب على كل ما يملأ قلبها من تساؤلات.

-الحب أعظم سلطان، ومن يملكه يستطيع أن يستبد بكل من حوله.

ردت عليه ليلى هامسة.

-مفيش حد بيملك الحب .

-لكن ممكن يملك إللي بيحبوه تعرفي إنت ممكن بالقوة تجبري أي شخص على فعل أي حاجة، لكن تفضلي تحسبي قوته، ونقاط ضعفه عشان تقهريه بقوتك، لكن إللي بيخضع بالحب هو إللي يقدم لك كل حاجة، وبرضاه، وتكون أقسى أمانيه إنك تقبلي إللي بيقدمه لك، التقت عينا ليلى بعيني خالد، وهو يتحدث لها عن الحب، وقوته، وأحست لأول مرة أنها أخطأت في حقه، فلا يمكن أن يكون خالد قد دفن قلبه وسط أراضيه الشاسعة، وهو يتحدث عن الحب بمثل هذا الأسلوب.

كانت حيرة ليلى واضحة، وازدادت أمام عيني خالد التي كانت أشبه بالبحر العميق الذي لا يمكن لليلى أن تمنع نفسها من الغوص في أعماقه رغم ثقتها بعدم مقدرتها على هذه المغامرة مما زاد من حيرتها، واضطرابها... استغل خالد حالة ليلى، وأقترب منها، وهمس لها :

-تفتكري إيه أصعب: الوقوع في أسر أعظم القوى، والا الوقوع في أسر عيون إللي بنحبهم؟

اشتعل وجه ليلى خجلًا، وفرت من أمامه، وأسرعت تحتمي بجدران

البيت، أما خالد فظل واقفًا في الحديقة مزهوًا بما حققه من انتصار ساحق..

(٨)

لم تستطع ليلى أن تفر من أسر عائلتها، وكل من حولها، فالجميع، وكأن بينهم اتفاقًا خفيًا قد أحكموا الحصار حولها، فالجدة لا ترضى أن يعطيها أحد غير ليلى الدواء، فهي الطبيبة التي تعرف الأمور الصحية، ورغم أن ليلى كانت ترى أن الجدة لا تعاني إلا من بعض متاعب كبر السن، لكنها كانت تبالغ في تدليلها، فقد شعرت أن الزمن يعوضها عن أشياء كثيرة حرمت منها، وكم كانت سعادتها، وهي تقيس لها الضغط يوميًا.

كانت في كل مرة يأخذها الشجن بعيدًا، تتذكر مرض والدها، ورعايتها له، وقبل أن تهاجم الدموع مقلتيها تتدخل عواطف، وتحدثها في موضوعات شتى أغلبها مبهجة، وكأنها أم حقيقية لها، وتشعر بما ينبض به قلبها، وتريدها دائمًا أن تبتهج، ولا تستسلم لأي حزن.

سرعان ما وجدت ليلى نفسها تنادي عواطف «ماما»... كانت في البداية تشعر بالإحراج، فحاولت الاعتذار خاصة عندما وجدت سوسن، وهناء تنظران لها بحدة، وحقد، لكن عواطف كانت تشجعها دائمًا، وفي إحدى المرات كانت الأسرة مجتمعة على مائدة الطعام، وأرادت سوسن إحراج ليلى، فعلقت على مناداتها لوالدتها بماما .

-إيه ماما دي هو إنت شايفاها خواجاية...

هنا تدخل خالد ليحسم الأمر نهائيًا .

-الحاجة أمنا كلنا، وليلة تناديها زي ما هي عايزة.

ازدادت نيران الغيرة اشتعالًا في صدر سوسن من موقف خالد من ليلى، فقد كان قلبها يمتلئ بالغيرة من ليلى منذ أن وطأت قدماها دارهم، فقد عرفت جيدًا بحسها الأنثوي أن زوجها سينجذب لها، ورغم أن سيد لم يحاول أن يقترب من أي مكان توجد ليلى فيه، فقد أكد هذا لسوسن ظنها، فسوسن على ثقة من أن ليلى لن تلتفت لشخص مثل زوجها، لكن لماذا ينظر زوجها لليلى؟! ألجمالها الأجنبي، أم لأنها فتاة قوية، ومستقلة؟!

ما هذا إن سيد زوجها لا ينظر إلى الشخصية أو الجمال يكفي أن يرى أي أنثى ليحاول النيل منها... إنه يسعى دائما إلى أخذ أي شيء من المرأة التي تقع عيناه عليها حتى لو كان الزجر لا يهم... أليست سوسن امرأة جميلة؟! لقد كانت أجمل فتاة في القرية، وعندما طلب سيد خطبتها أحست بسعادة غامرة، وكأنها انتصرت على كل بنات الدنيا، وتزوجت الشاب الذي ترك العالم من أجلها .

كان كل ذلك مجرد خيالات في رأس سوسن جعلتها تذوق كل كئوس العذاب، وكم تدخل خالد للحد من نزوات هذا الزوج الماجن، لكن هل يوجد من يستطع ردع فاسد؟!!...

كان خالد هو الوحيد الذي لا يرضى عن صفقة زواج أخته، وكم أخذ شكواها محمل الجد، فكان بالنسبة لها هو الحامي، وهو الأمان، فكيف لهذه الأجنبية التي جاءت من المجهول تستولي عليه ؟! لقد نشر عباءته حولها ليحميها من كل ما يحيطها من أخطار، وهي تقابل حمايته

بالمجادلة، والمعارضة.

كانت رأس سوسن مسرحًا لتلك الأفكار المضطربة، فأضجت مضجعها، وجعلتها تقضي الليالي ساهدة تفكر دائمًا في كيفية النيل من ليلى، وزاد من حقدها ما شاهدته، ولمسته من حب أطفالها، وأطفال هناء لهذه الزائرة...

كانت من عادات الأطفال الذهاب مبكرًا إلى بيت العائلة ليعطيهم خالهم المصروف، وتنقلهم سيارته إلى مدارسهم... كان هذا اللقاء اليومي فيه من الود بقدر ما فيه من الغلظة إذا أخطأ أحدهم أو أهمل في واجباته، وكان التأنيب في أغلب الأحوال من نصيب أولاد هناء الذكور...

كان خالد كثيرًا ما كان يهدد الأولاد الثلاثة بالعقاب الشديد، وكثيرًا ما ارتفع صوته، وهو يزجرهم، لكن الأمر اختلف بعد قدوم ليلى، فعندما وصل إلى مسامعها صياح خالد ذهبت منزعجة إلى مكتبه حيث وجدته، وكل أطفال العائلة أمامه، وهو يصيح في أولاد هناء... هنا تدخلت ليلى مدافعة عن الأولاد... لم يرض خالد عما فعلته ليلى، فانتظر انصراف الأطفال، وحدثها بحدة

-ليلة لو سمحت ما تدخليش....

قاطعته ليلى بحدة .

-خالد الأطفال لهم طريقة في المعاملة، وصوتك العالي مش حل كمان إنت بتعاقب أولاد هناء وسط أخواتهم البنات، وأولاد سوسن الأربعة ده تعذيب لهم، ومش أسلوب.

نظر لها خالد بحدة، والغضب يرسم على وجهه لوحة كلاسيكية...

أحست ليلى لأول مرة أنها لو استمرت في الحديث مع خالد قد يضربها بأي شيء أمامه، لكنها ظلت واقفة أمامه، فصاح:

-إنت على طول كده بتتحديني في كل حاجة.

-خالد أنا...

أشار لها خالد بأن تكف عن الحديث.

-عندك العيال بعد المدرسة تيجي، وإنت تذاكري للتسعة كلهم، ونشوف أسلوبك يمكن تحدث معجزة.

صدمت ليلى من حجم الأغلال التي تزداد يومًا بعد الآخر تشدها لهذه العائلة، فالأمر لم يعد مجرد حيوانات تعالجهم لقد تعد ذلك بكثير، وأصبح الآن عليها واجبات كثيرة، ومحددة تجاه كل أفراد العائلة بداية من الجدة، وحتى أطفال العائلة... ماذا تفعل الآن ؟!... كيف يمكن أن تفر من هذه العائلة ؟! لكن هل حقًا كانت ليلى تسعى للفرار ؟!

كان كل يوم يمر تجد ليلى نفسها تنجذب لهذه الأسرة أكثر من اليوم السابق له... أيمكن أن تتخذ هذه الأسرة عائلة بديلة لها ؟! كم طاف هذا السؤال بخيال ليلى، وفي كل مرة كانت تطرد هذه الأفكار من رأسها، وهي تؤنب نفسها .

«ماذا يا ليلى هل جننت لأفكر مثل هذا التفكير ؟!...إنهم مجرد أشخاص أجبرت لأعيش معهم فترة طالت أم قصرت فهي مجرد أيام قلائل لماذا أفكر فيهم بمثل هذا الشكل.... لكن أنا بيني، وبين خالد ميراث مشترك، فلا يمكني أبدًا الفرار من خالد...آه خالد إنه قدري، لكن لماذا استسلم لهذا القدر... آه أيمكن أن يهرب الإنسان من قدره ؟؟!!

وقبل أن يطول التفكير بليلى وجدت نفسها محاطة بتسعة أطفال في مختلف المراحل الدراسية، وعليها التعامل معهم... رغم كم الإرهاق التي عانت منه ليلى، فقد كانت تشعر بسعادة، وحماس ، وهي تستذكر الدروس مع الأطفال خاصة، وهي ترى استجابة الأطفال لها، وتذكرت والدها، وهو يشرح لها دروسها بهدوء، وسلاسة، فحاولت قدر الإمكان أن تكون مثله...

كانت هناك عينا سوسن تراقبانها، ونيران الغيرة تنطلق منهما تريد حرق ليلى، وانعكس ذلك على تصرفاتها، وبعصبية شديدة نهرت أولادها، وهم يلتفتون حول ليلى، وأمرتهم بالعودة معها إلى المنزل مدعية أنها تشعر بالإرهاق...

ألجمت الدهشة الحاضرين لكن الكل كان يعرف سوسن جيدًا حتى ليلى بدأت تتعرف عليها، فلم يزعجها ما حدث، وركزت مع أولاد هناء... كانت هناء على عكس أختها، فقد كانت تشعر أن ليلى قد هبطت عليها من السماء استجابة لدعائها بأن يصلح الله حال أولادها، فظلت طوال الوقت تحضر لهم كافة أنواع الطعام، والشراب حتى نهرتها ليلى في النهاية... تقبلت هناء انفعال ليلى بترحاب، وشاركت الجدة، والأم في الدعاء لليلى بأن يرزقها الله بابن الحلال.

كان خالد يراقب ليلى، وجو المذاكرة المخيم على المكان، فأخذته الذكريات بعيدًا، فغادر المنزل، وسار شاردًا في الحديقة... عاد خالد لسنوات بعيدة مضت، وتلاحقت الصور أمامه... كانت الصور مشوشة في البداية، لكنها وضحت تدريجيًا، فرأى خالد أمامه حياته كشريط

سينمائي :

تلميذ مجتهد يحصل دائمًا على أعلى الدرجات... مجموع كبير في الثانوية العامة، لكنه يختار دراسة القانون حبه الأول... رحلة طويلة من التفوق... ها هي صورته، وهو ينكب على الكتب لساعات...يضيق صدره من هذه الذكريات، فتعلو الصرخات في صدره.

« لماذا يا ليلة... لا سامحك الله لماذا تعيديني إلى ذكريات كم حاولت نسيانها ؟! لقد تركتها ترحل عني، فلماذا... لماذا ؟!... آه، وما ذنب ليلة ألست أنا من أراد معاقبتها على معارضتي، وها أنا أعاقب نفسي... ماذا كنت أظن ؟! هل توهمت أنني سأرى الكتب، والمذاكرة، وأظل متناسيًا ما كنت فيه ؟!...لماذا تركت الجامعة، والتدريس، وأتحول من دكتور في القانون الدولي إلى مجرد عمدة لقرية يمتلك هو، وعائلته أغلب الأراضي فيها !! ياه يا خالد لماذا فعلت بنفسك ما فعلت ؟!... لقد كان قدري... لا... لا لن أخدع نفسي إنه حب السلطة الذي تملكني، فمنذ أن أدركت الدنيا من حولي، ولعائلتي الكلمة العليا... الكل يطيعنا، فكيف أترك كل هذا ؟! عندما فكر عمي في مشاعره، وجرى وراء قلبه كان أبي هو البديل، لكن من كان سيحل محلي كان يجب أن أتولي زمام الأمور حتى أثناء حياة أبي وإلا ستنفلت الأوضاع من بين أيدينا...أكان من الممكن أن أترك الهيبة، والسلطان ؟! إنه ميراثي... ميراثي أنا وحدي، ولن أتنازل عنه أو أدع أحد يشاركني فيه.»

غرق خالد في بحار ذكرياته التي كانت تصعد به إلى عنان السماء ليرى نفسه شابًا لا يعرف سوى السعادة، وهو يمارس عمله وسط أرجاء

الجامعة، وسرعان ما تهبط به إلى أرض الواقع ليعود إلى وضعه كعمدة قوي يرتدي على وجهه قناعًا جامدًا من الفخار، ولا يعرف أي ملمح من ملامح البشر.

في الوقت ذاته كانت ليلى قد انتهت من يومها الطويل، وودعت الجميع، وأرادت أن تسير قليلًا في الحديقة لتخفف من حدة يومها، فوجدت خالد يسير، وهو شارد، ولم يشعر بأنها تسير بجواره... لفت شكل خالد، وهو شارد ليلى، فنسيت تحديها له في شأن الأطفال، وحدثته بتلقائية.

-هيه يا خالد إللي واخد عقلك...

أفاق خالد من شروده على صوت ليلى، فنظر إليها، وهو يتأمل وجهها المبتسم، وعينيها اللتين تشعان بالحماس، والرغبة في تحد المستحيل... أربكت نظراته ليلى لكنها لم تخف ابتسامتها، وواصلت سيرها، فأجبرته على أن يستأنف السير، ويكف عن تأملها..

حدثته ليلى بمكر طفولي .

-إحكي لي، ولا بلاش..

رد عليها خالد بابتسامة شجن.

-أبدًا شكلك مع العيال فكرني بأيام زمان.

أخفت ليلى ضحكة خفيفة .

-إيه يا جدي ..

بادلها خالد الضحكات مما شجعها على الحديث معه في أمر مهم .

-أنا كمان مذاكرتي للعيال حمستني على أن أعيد تجربة الدكتوراه، وأنا لقيت عجول كتير هنا ممكن أطبق التجربة عليهم.

رد عليها خالد بحماس.

-برافو هايل... أي مساعدة أنا تحت أمرك.

-طبعًا فيه حاجات مطلوبة منك... أولًا عدم التدخل، ثانيًا أمامك حل من اتنين إما تاخد عجول بدل من إللي حا أطبق عليهم التجربة من نصيبي في عجول المزرعة أو تستنى لما نجمع المحصول، وتاخد تمنهم كاش.

لم يلتفت خالد إلى ما قالته ليلى عن ثمن العجول، وطرق سدادها، فقد اعتبرها خرقاء تهذي، لكن ما لفت نظره شيء آخر .

-يعني بالطريقة دي حا تفضلي معانا...

اضطربت ليلى من تعليق خالد

-آه... لا... يمكن... مش عارفة.

لم تستطع ليلى أن تواصل حديثها مع خالد، وانطلقت لتعود مسرعة إلى بيتها .

ظلت ليلى ساهدة طوال الليل تفكر فيما يحدث لها .

«لماذا أشعر بالاضطراب أمام خالد، ونظراته لي، ماذا حدث... هل سأظل فعلًا لمدة طويلة في هذا البيت ؟ إنني هكذا انتحل الأعذار لأبقى لأطول مدة ممكنة في هذا البيت... لا.... لقد حسمت أمري...سأذهب في الصباح الباكر إلى المزرعة لأختار العجول التي سأستبدلها بما لدى خالد، وبعدها أعود إلى بيتي، فلماذا البقاء ؟! لماذا أطمع في هذه الأسرة؟!»

كان ما توصلت إليه ليلى حلًا حاسمًا، فكلما طال مقامها في هذا البيت زاد ارتباطها بكل من فيه، وهو ما يعني زيادة ألمها وقت فراقهم، وهذا قدر لابد منه، فمن الأفضل أن تسارع بالفرار، لكن كان مجرد التفكير في أنها

ستبتعد عن المكان، ومن فيه يجعلها تشعر بصدرها يضيق، وكأن أنفاسها حبست بداخله، كانت تتذكر وجوه أصحاب الدار فيتزايد شعورها بالضيق، لكن كانت لصورة خالد وقع مختلف، فقد سيطرت على كل تفكيرها، وعبثًا حاولت الفرار منها..وكيف، وقلبها رفع راية العصيان، وأعلن الاحتجاج صراحة على مجرد التفكير في البعد عن خالد.

حاولت ليلى الإنكار، وأرجعت توترها إلى ما يحيط بها من مشكلات... ما أن بدأ شعاع الشمس يغزو المكان حتى أسرعت ليلى بالبدء في تنفيذ ما توصلت إليه، واستعدت إلى السفر إلى المزرعة...كانت حركاتها تبدو نشيطة، ومسرعة، فقد كانت تحاول إخفاء توترها بهذه السرعة.

على مائدة الإفطار أخطرت ليلى الأسرة بأنها ستسافر اليوم إلى المزرعة... كانت تقول ما تنوي فعله كأنها تلقي بيانًا، ولا تريد أي تعليق، وفي النهاية طلبت من خالد أن يأمر السائق بتوصيلها إلى أقرب مكان لتستقل منه سيارة أجرة للمزرعة...

لم يستطع خالد أن يتمالك أعصابه، واستشاط غضبًا، وتحدث بصوت حاد، ومرتفع .

-آه... إنت كده كل إللي يطق في راسك تعمليه...لا لك كبير، ولا حد تستشيريه.

كان رد فعل ليلى قويًا مثل حدة خالد، وزاد من حدتها كم التوتر الذي تعانيه من صراع داخلي بين رغبتها الجامحة في البقاء، وأوامر عقلها بضرورة الفرار .

-إنت بتكلمني كده إزاي ؟!... أنا مش أسيرة عندك... كمان دي

مزرعتي، وأنا حرة أروحها وقت ما أنا عايزة، أنا اتصلت بإللي في المزرعة، وأخبرتهم بأني جاية...أنا...

كان توتر ليلى قد بلغ حدًا كبيرًا، فلم تستطع التحكم في انفعالاتها، ولا في حدة صوتها، وحتى الكلمات خانتها، فخرجت من فمها مندفعة دون ترابط... لم يكن خالد بأحسن منها فقد تملكه الخوف من أن ليلى سترحل عنهم، فاضطربت أعصابه، وأخذ يرفع من نبرات صوته، ويشيح بيده مرة، ومرة أخرى يضرب بقبضته على مائدة الطعام، يجلس، ويقف، ومثله كانت تفعل ليلى... صاح خالد فيها بحدة.

-إنت راسك دي عايزة كسرها.

ردت عليه ليلى بصياح .

-إنت نسيت نفسك...إنت مجرد واحد بالاسم ابن عمي، لكن لا إنت تعرفني، ولا أنا أعرفك شرع ربنا بس هو إللي خلانا نتقابل، وطبعًا إنت ما كنتش بتسعي للمقابلة، والدليل أن عمك مات من شهور، وإنت لا سألت، ولا حاولت تعرف عني أي حاجة، فما تعملش دلوقتي إنك ابن العم إللي بتخاف على بنت عمه.

-إنت قليلة الأدب، ولو كان عمي دلعك....

قاطعته ليلى بحدة .

-اسكت خالص ما تجبش سيرة بابا بكلمة... إنت مالك وماله، هو إنت كنت تعرفه .

هنا صاحت الجدة بأعلى صوتها :

-إخرسوا بلا قلة حيا منك لها عمالين تصرخوا، ومش عاملين احترام

لأي حد.

أطرق خالد وليلى، ونظرا إلى الأرض، وقطرات الخجل تغزو جبهتهما، تركهم الجميع، وغادروا حجرة الطعام... صعدت الجدة إلى حجرتها غاضبة، وأسرعت سوزان خلفها أما الأم فقد اتجهت إلى المطبخ، وهي تحمد الله بصوت مسموع على عدم وجود سوسن أو هناء حتى لا يزداد الأمر اشتعالاً..

شعر خالد، وليلى بأنهما طفلان صغيران يعاقبهما الجميع على شجارهما، فخرجا إلى الحديقة، وهما ينظران إلى الأرض خجلاً... ظل خالد وليلى ينظران إلى الأرض ثم نظر كل منهما إلى الآخر... علت وجهيهما الابتسامات ثم انفجرا في الضحك.

(٩)

لم يكن يوم ليلى الحافل قد انتهى بعد، فمشاجرة الصباح مع خالد لم تكن سوى مقدمة لأحداث جسام قلبت يوم ليلى رأسًا على عقب، فما أن اقترب النهار من الانتصاف حتى جاءها تليفون يخبرها بخطب جلل، فهرولت إلى خالد... كاد قلب خالد يتوقف عن الخفقان عندما رأى ليلى، والهلع ينطلق من عينيها فسألها بهلع:

-ليلة... فيه إيه ؟!

أخبرته ليلي عما وصلها من أنباء عن اندلاع حريق هائل في مزرعة الفيوم... أسرع خالد، وليلى بالذهاب إلى المزرعة... عندما وصلا كان الحريق على وشك الانتهاء بعد أن دمر الاستراحة كاملة، وجزء كبير من الحظيرة، لكن لم يكن هناك خسائر في الأرواح.

شارك خالد، وليلى عمال المزرعة في استكمال عملية الإطفاء، وكان كل هم ليلى هو الاطمئنان على الحيوانات... أمر خالد بنقل كل حيوانات المزرعة إلى القرية بالمنيا، فهناك أفضل لهم.

وأخيرًا وصلت الشرطة للتحقيق في الأمر... كان الانطباع الأول لأي شخص أن الحريق مدبر، والهدف منه القضاء على من في الاستراحة، وهكذا وضحت الصورة أمام ليلى، وتخيلت نفسها وسط النيران

المشتعلة... أهذا هو الجحيم الذي كانوا يتوعدوها إياه عندما قالت كلمة الحق.

امتدت يد حانية تربت على كتفها... كان خالد بجوارها، وكل علامات الأسى ترتسم على وجهه... لم يكن خالد يهتم بما حدث للمزرعة كان المهم هو حزن ليلى، وما أحس به من دموع مختنقة يضيق بها صدرها. فحدثها بحنان:

-إلا البكا يا ليلة... إنت بطلة، والأبطال إللي زيك يقفوا دايمًا راسخين زي الشجرة جدورها ممدودة في الأرض، وراسها مرفوعة في السما.

لم تستطع ليلى الرد عليه، وظلت صامتة لا تريد أن تفعل أي شيء... كانت مستسلمة تمامًا، وتسير مطأطئة الرأس، ووجهها قد انتزعت منه كل الملامح... جلست صامتة بجوار خالد، وهما عائدان إلى البيت.

كانت الأسرة كلها مجتمعة في انتظارهما... ما أن دلفت ليلى إلى البيت، ورأت الجميع حتى اندفعت ترمي بنفسها بين أحضان عواطف، وانفجرت باكية... ظلت عواطف تربت على ظهرها، وهي تقرأ آيات من القرآن لتهدئتها، وأخذتها ليصعدا معًا إلى حجرة ليلى، وتبعهما كل نساء الدار عدا سوسن.

كانت الشماتة تملأ صدر سوسن، وظهرت علامات الفرح على وجهها، وبصوت تملؤه السعادة سألت خالد عما حدث، لم ينظر خالد لها، فتركته لتعود إلى منزلها، والدنيا لا تسع فرحتها بما ألم بليلى.

كان خالد يقتله القلق على ليلى، ولا يدري ماذا يفعل.

«هل أصعد إلى غرفتها ؟...لا ربما يحرجها تصرفي هذا... أتصل

بها فهاتفها لا يفارقها أبدًا... لا..لا..كيف سأتصل بها، ونحن في نفس البيت... إن عليّ الانتظار، لكن إلى متى ؟!... ماذا يجري في حجرتها ؟ أتراها لا تزال تبكي ؟!... من المؤكد أن التعب قد أنهكها إنها لم تتناول أي طعام منذ الصباح.»

وجد خالد في أمر الطعام حجة مناسبة، فأحضر بعض الأطعمة، وصعد إلى حجرة ليلى... كانت ليلى مستلقية على سريرها، وقد ألتفت النساء حولها، وعندما طرق خالد الباب رحبت الجدة بقدومه، ومدحت صنيعه، ودعته للدخول... جلست ليلى على السرير، ونظرت إلى خالد في إشارة لأن يبقى معهم...

قدم خالد لليلى الطعام، لكنها رفضته، فبدأت عواطف في تدليلها حتى تتناول أي شيء كما دعت خالد ليشارك ابنة عمه في تناول الطعام... كانت ليلى مازالت فزعة مما حدث، وتتخيل نفسها وسط النيران، فتزداد فزعًا لتطلق صرخة هلع عندما سمعت جرس هاتفها يرن.

نظر لها خالد بقوة .

-ردي.

أمسكت ليلى الهاتف بيد مرتعشة، وردت، لكنها سرعان ما استعادت قوتها التي استمدتها من نظرات خالد لها، فتحدثت بحسم.

- إعملوا إللي تقدروا عليه أنا قلت إللي يرضيني من ربنا طبعًا دي حاجة إنتم ما تعرفوهاش.

أغلقت ليلى الهاتف بقوة... قدم لها خالد الطعام، فأخذته منه، وتناولته بشهية، وهي تبتسم له... شاركها خالد في تناول الطعام، والسعادة تملؤه،

وهو يتأمل وجه ليلى الباسم.

كان على ليلى وخالد الذهاب إلى النيابة في الفيوم لاستكمال التحقيق، وهناك تأكدت ليلى من أن ما فعله خالد معها، ورفضه أن تذهب للمزرعة كان بدافع الخوف عليها، وهو بذلك أنقذ حياتها من موت محقق، ومن المؤكد أنه كان على ثقة مما سيحدث، ولم يكن الأمر مجرد استبداد عمدة قاس القلب كما فسرت ليلى موقفه في البداية.

بعد انتهاء التحقيق كان أول ما فعلته ليلى هو الاعتذار لخالد... أشرق وجه خالد من السعادة، وهو يستمع إلى ليلى، وهي تحدثه عن تفهمها لموقفه، وإنه كان بدافع الخوف عليها... كم تمنى خالد أن تتفهم ليلى موقفه بدقة أكثر، لكن لا بأس يكفيه هذا الآن، وليدع الفرحة تملؤه، فليلى أدركت أخيرًا خوفه عليها.

أضاءت الفرحة وجه خالد، فظهر أكثر شبابًا، ووسامة وزاد من وسامة الملابس العصرية التي كان يرتديها، وسيره بخفة، ونشاط بجوار ليلى... تقدم خالد بسرعة، وفتح لليلى باب السيارة، وحدثها برقة .

-على فكرة أنا عاملك مفاجأة.

ردت ليلى بشقاوة الأطفال .

-حا ترميني في الترعة.

أطلق خالد ضحكة صافية، وانطلق بالسيارة، لكنه لم يعد بليلى إلى المنزل، وإنما اتجه إلى مدينة المنيا.

-إيه رأيك إنت زرت المنيا قبل كده ؟

-لا ده أول مرة...فعلًا المدينة جميلة، ومنظر النيل يجنن.

-طب إيه رأيك نركب الحنطور.

أشار خالد إلى أحدي المركبات المنتشرة على الكورنيش... كان السائق يضرب الحصان بعنف، فاندفعت الدماء في رأس ليلى، وتحدثت بحدة، وعصبية.

-خالد شوف الحقير بيضرب الحصان إزاي... والله...

قاطعها خالد، وهو يمسك بيدها.

-أبوس إيدك يا حبيبتي كفاية.

واصلت ليلى حديثها المندفع.

-حرام يا خالد هو عشان حيوان ضعيف يفتري عليه.

رفع خالد يد ليلى، وقبلها، وهو يردد:

-كفاية... كفاية

ارتجفت أوصال ليلى خجلًا مما فعله خالد، فخرجت مسرعة من السيارة... سارت ليلى على ضفاف النيل، وخالد بجوارها، وبعد فترة وقفت ليلى تتأمل منظر النيل، فأقترب خالد منها، وهمس لها.

-بتحلمي بإيه ؟

ردت عليه ليلى مبتسمة:

-إيه حكايتك مع الأماني، والأحلام ؟

نظر لها خالد متأملًا وجهها، فشعرت ليلى بالحرج، فنظرت إلى الأرض، لكن سرعان ما عادت لأسر عيني خالد... وبصوت عميق هادئ روى لها خالد حكايته مع الأحلام .

-الحكاية تبدأ من زمان... كان يا ما كان طفل صغير يلعب أمام منزله، ورأى عمه يحمل ابنته الصغيرة، فرجاه أن يحملها قليلًا... أعطى العم ابنته للولد الصغير، ومعها طعامها، وأوصاه ألا يجعلها تبكي أبدًا، ظهر على الطفلة بداية علامات البكاء، فأسرع الطفل بإطعامها، ثم وضعها على صدره كما علمه عمه وضمها إلى صدره، وأخذ يهمس لها بكل أحلامه... كانت جدته وقتها تحكي له عن الجنيات الطيبات، وكيف يحققن الأحلام حتى المستحيلة منها... شعر الولد أن الطفلة التي بين يديه هي واحدة من تلك الجنيات، ولِمَ لا، فقد كانت عيناها تلمعان، والنجوم تتلألأ منها، سار الولد، وهو يحتضن الطفلة حتى شجرة البرتقال، وظل واقفًا تحتها يهمس في أذن الجنية الصغيرة بأحلامه التي كان يراها مستحيلة... وكان يقبلها مع كل حلم حتى ترضى عنه، وتحقق له أحلامه السبعة المستحيلة.

وبشغف الأطفال سألته ليلى.

-وتحققت الأحلام ؟

عاد خالد إلى أرض الواقع بعد أن كان سابحًا في بحار الخيال مع ذكريات الماضي البعيد.

-آه... يعني... تحققت إلا الحلم الأول، والأخير.

-الأول ؟

-ده مراوغ جدًا، وكل ما أفتكر إنه بين يدي يهرب، ويبقى أبعد من نجوم السما.

شعرت ليلى أن خالد لا يريد أن يفتح لها قلبه، ويحدثها بصراحة عن أحلامه... لماذا؟ ألم يهمس لها بها، وهو صغير، فما الداعي الآن

لأن يخفيها عنها... هيا يا خالد لتقل كل ما في قلبك... اتجهت ليلى للمراوغة، فسألته ببراءة .

-طب والحلم الأخير ؟

نظر لها خالد، والابتسامة تملأ وجهه.

-آه... كان حلم طفولي بأن أملك عصا سحرية لأحقق كل أحلام الجنية إللي حققت لي المستحيل.

وبأسلوب المباغتة سألته:

-وحلمك الأول ؟

وبدون وعي أخبرها خالد بالسر الذي ظل يخفيه طول الوقت.

-إنك تفضلي معانا على طول.

اضطربت ليلى خجلًا، فباغتها خالد، وعرض عليها رسالة على هاتفه جاءت بعد قدومها إليهم بثلاثة أيام مكتوب فيها عنوان منزل ليلى الجديد، وعلق خالد.

-يعني أنا كنت بدور عليكي من بعد ما عرفت خبر عمي على طول، ولو كنت إتأخرتي يومين كنت أنا إللي رحت عندك....

توقف خالد عن الكلام أمام خجل ليلى الذي أشعل وجهها احمرارًا، فابتسم لها .

-أصحاب البشرة البيضاء يتحولون إلى الاحمرار عند الخجل.

وبشقاوة الأطفال ردت عليه.

-إيه دي نظرية علمية ؟

-لا دي حالة تطبيقية.

وبصوت منخفض به بعض من مكر الأطفال.

-معلش ظلمتك، لكن إنت كنت عايز تعرف عنواني ليه ؟

أطلق خالد زفرة ضيق.

-أف... ظلم تاني يا ليلة.

ابتسمت له ليلى معتذرة، وأحست أنها ترى خالد لأول مرة... لم يكن هو العمدة القاسي، ولا الإقطاعي الذي دفن قلبه في أراضيه الشاسعة، ولا هو الشخص المستبد الذي يفرض إرادته على الجميع لقد انتزعت عن وجهه كل الأقنعة، وظهر أمامها بوجهه الحقيقي البشوش الذي يمتلأ بالحياة، وتعلوه كل علامات العطف، والحنان، فارتسمت أمام ليلى صورتها، وهي تبكي في الظلام، وخالد يطمئنها عبر الهاتف، فسألته فجأة

-خالد إنت اتصلت ليه ؟

لم يفهم سؤالها في البداية.

-اتصلت بمين ؟

حاولت ليلى تذكيره .

-لما اتصلت بي بالليل، والنور مقطوع، وأنا كنت بعيط...

ابتسم لها خالد.

-آه.. أبدًا... ليلة بنت عمي كانت خايفة.

شعرت ليلى بمدى ضآلتها، فكيف هي تتهمه بأنه ابن عمها بالاسم، وهو يفعل كل ما يفعله من أجلها... يا لها من طفلة بلهاء !!!

(١٠)

نسيت ليلى تمامًا التفكير في ترك بيت العائلة، والعودة إلى منزلها بالقاهرة... لقد أصبح لها جدولها اليومي المشحون بالمهام الجسام، كما ألقيت على كاهلها العديد من الواجبات التي عليها القيام بها، وإلا تعرضت للعقاب الشديد، فما أقسى من نظرات عتاب الجدة إن هي تأخرت عن موعدها معها في المتابعة الصحية...

كان حال الأم لا يختلف كثيرًا عن الجدة، فعواطف أصبحت لا تستطيع أن تحتسي القهوة دون أن تشاركها ليلى، وكم كانت سعادتها، وليلى تعرض عليها خدمات قراءة الفنجان، ورغم تأكيد ليلى على أنها كانت تمزح، فقد أصبحت عواطف على ثقة تامة في كل ما تخبرها ليلى به، ورفعت شعار «فنجان ليلى ما ينزلش الأرض».

وبجانب هذه الواجبات البسيطة كان هناك المهام الكثيرة، والمرهقة بداية من رعاية الحيوانات في أرض العائلة في الأساس، وحيوانات القرية إن لزم الأمر، ثم تأتي بعد ذلك المذاكرة لمن يحتاجها من أطفال العائلة، وحتى سوزان كان لها نصيب من هذه المهمة.

فكانت ليلى تبدأ يومها منذ الصباح الباكر بعد شروق الشمس بقليل لينتهي بها المطاف مع آذان العشاء... وقتها كانت لابد أن تخرج للسير في حديقة المنزل لتنفض عن كاهلها أعباء اليوم كله.

أثناء سيرها كانت هناك خطوات واثقة تسير بالقرب منها... تقترب منها رويدًا... رويدًا لتجد لها رفيقًا في السير وسط الأشجار الباسقة... كان صوت خالد، وأسئلته التقليدية عن حالها يثيرا تعجبها، فكأن والدها هو من يحدثها... أيمكن أن يكون خالد قد ورث عن عمه نبرات الصوت الحنون، وطريقة السؤال الدافئ التي تشعرها بأنها محاطة بالجنيات الطيبات اللائي يحرسن خطواتها دائمًا....أيمكن أن يكون القدر عوضها بهذه السرعة عن فقدان والدها ؟!

كم كان والدها يوصيها بالذهاب إلى عمها إذا حدث له مكروه، وعندما توفي عمها تحولت الوصية إلى خالد، لكن كيف هل كان الوالد يعرف ابن أخيه كل هذا القدر... كم حير ليلى هذا السؤال، فوجدت نفسها دون مقدمات تسأل خالد.

-هو إنت كنت تعرف بابا أقصد تعرفه كويس ؟

رد عليها خالد ضاحكًا.

-هو كان عمي، وأنا ابن أخوه بجد مش بالاسم.

أشتعل وجه ليلى خجلًا، فرأف خالد بحالها، وحدثها بجدية.

-عمي ووالدي كانوا دايما بيتقابلوا، وطبعا أغلب المقابلات كنت بأحضرها، وأنا كنت على اتصال دائم بعمي حتى هو إللى قدم أوراقي في الجامعة، لكن الغريب أن عمي كان بيحرص على أن يقابلنا بعيد عن بيته، وطبعا هو ما دخلش بيت العيلة بعد ما طرده جدي، فكنا بنتقابل جنب المحطة لما كان عمي ييجي البلد أو في أي مكان في القاهرة لما نروح هناك.

أطرقت ليلى قليلًا، وبدأت الدموع تلمع في مقلتيها .

-ما كنش عايز حد يعرف موضوع ماما يمكن كان خايف عليكم...

رد عليها خالد بحسم.

-لا يا ليلة... عمي ما رضاش يتعرف الموضوع، وكده يدخل بيت العيلة على حساب دم حبيبته.

شعرت ليلى بالشجن يتغلغل إليها، وهي تستمع لتحليل خالد لموقف عمه، فازدادت لمعان الدموع في مقلتيها، أسرع خالد بتغيير مجرى الحديث ليمحو الدموع من مقلتيها قبل أن تتزايد..

-تعرفي أنا السبب في دخولك بيطري..

عاد التحدي، وعناد الأطفال يرسمان ملامح وجهها الذي اختفى منه الشجن.

-يا سلام... ده أنا كنت مصرة على بيطري، وتحديت الدنيا.

-وعمي كان رافض، وأنا إللي إتحايلت عليه عشان ما يزعلكيش..

اقترب خالد من ليلى، وحدثها هامسًا.

-أظن إنك إنت إللي بنت عمي بالاسم دا إنت ماكنتيش متأكدة من اسمي.

أشرق وجه ليلى بالابتسام، وتحدثت ضاحكة.

-أنا... أنا يا دكتور خالد، وحياة جامعة السربون إللي أخدت منها الدكتوراه في القانون الدولي.

نظر لها خالد بدهشة سرعان ما تحولت إلى غيظ حميم .

-يعني كنت بتخدعيني، وإنت بتغلطي في اسمي.

-طبعًا يعني عايزني أكون عارفة عنك كل حاجة، وإنت ما فكرتش حتى تسأل عني.

-آه كنت فاكرك طيبة يا ليلة يا بنت عمي لكن طلعتي بنت الخواجاية.

لم تتمالك ليلى نفسها، وانفجرت ضاحكة.... شاركها خالد الضحكات، فامتلأت الدنيا حولهما بالسعادة، ووصل صدى ضحكاتهما إلى كل من في البيت، وكم أثلجت هذه الضحكات صدور البعض، وكم أوغرت صدور الآخرين، وكأن أهل البيت قد أصبحا فريقين، الأول يضم الجدة، والأم، وسوزان، وهذا الفريق كان يبارك أي تقارب بين خالد، وليلى، وكان يعمل جاهدًا على تقوية هذا الترابط...

كانت عواطف تتحدث دائمًا مع ليلى عن أخلاق خالد النبيلة، وكانت تبرر تصرفاته الحادة، وتكشف عما وراءها من حكمة قد يجهلها البعض.... لم يكن حديث الأم يأخذ دائمًا محمل الجد، فحتى المزاح كانت عواطف، ومعها سوزان ينتهزان الفرصة للحديث عن خالد... أما الجدة، فقد انتهزت تعلق نساء الدار بأحد المسلسلات التركية، وأخذت تخلط عن عمد بين البطل المحبوب، وبين خالد... كان الكل يؤيدها عدا ليلى التي كانت تعارضها ساخرة.

-إيه يا وزة هو خالد فين، والممثل ده فين.

نهرتها الجدة بشدة.

-خالد أحسن، وشكله أحلى، ولا إيه ؟

لم يتمالك خالد نفسه من الضحك، وهو يستمع للجدل بين ليلى،

والجدة، وعندما احتدت المناقشة بينهما، تدخل خالد، وتحدث ضاحكًا:

-أيوه يا ليلة أنا أحسن من البطل عندك اعتراض.

نظرت له ليلى بتهكم.

-إيه التواضع ده ؟!

-لا يا ليلة، لكن كلام الحاجة يمشي على رقبة الجميع... ولو مش عاجبك تعالي، واتمشي معايا في الجنينة...

كان خروج ليلى مع خالد سببًا كافيًا في اشتعال النيران في الفريق الثاني الذي كانت تتزعمه سوسن، واستطاعت أن تضم هناء لها... فرغم ما أظهرت هناء من محبة لليلى في أول الأمر، فإن نيران الغيرة التي أشعلتها سوسن انتقلت إلى قلب هناء، فبنت «الخواجاية» لو استولت على قلب الأخ الكبير سيختفي الحامي لهما، ولن يصبح لهما أي سند في الدنيا.

استطاع الفريق الثاني أن يجد له بعض الأعوان من خارج الدار، فكانت الخالة حسنات، فنيران حقدها على ليلى أبدًا لن تخمد، فوالد ليلى كان من المفترض أن يتزوج حسنات، لكنه عندما درس في القاهرة شعر أنها أقل منه، فتنصل عن تلك الخطبة التي عقدها الآباء منذ أن كانت حسنات، وعواطف طفلتين صغيرتين.

حقًا لقد تزوجت حسنات بعد ذلك بفترة قصيرة جدًا حتى أنها سبقت أختها عواطف في الزواج، وقد رزقها الله برجل صالح، وأولاد كثيرين، لكن حقدها على والد ليلى ظل قائمًا، وازداد مع زواجه من فتاة أجنبية، بل تضاعف ليشمله هو، وزوجته، والآن ورثت ليلى كل هذه التركة من

الحقد، والغل، ورغم جهلها بهذا الميراث، فقد كان عليها أن تحصل عليه كاملًا دون أن تتقاسمه مع أحد.

اتفقت عضوات الفريق الثاني على التجمع في نفس الوقت في بيت العائلة، وليس لهن هدف واحد سوى الغمز، واللمز على ليلى، لم تكن ليلى تهتم بما يقلن أو يفعلن، لكن سوسن تمادت في الأمر، ولم تستطع أن تخفي حقدها، وبدأت تهاجم ليلى، وتنتقد كل تصرفاتها بحدة لاذعة.

كانت ليلى تتعجب من موقف سوسن العدائي منها، وما تفعله معها، فتملكها الضيق، وانتظر قدوم الليل بفارغ الصبر لتخرج، وتسير في الحديقة، وكأنها على موعد دائم مع خالد، وجدته أمامها... لم تكن ليلى تحتاج لأن تتكلم، فقد شعر خالد بكل ما يضيق به صدرها، فسألها بلهفة:

-خير يا ليلة إيه إللي مضايقك ؟

حاولت ليلى أن تخفي الأمر على خالد.

-لا مافيش حاجة أنا..

نظر خالد لها مكذبًا ما تقوله، فاعترفت بكل ما يضايقها.

-سوسن متزعمة حرب غريبة ضدي، هو أنا عملت لها إيه ؟

ابتسم خالد ابتسامة رضا، فقد كان يظن الأمر أخطر من ذلك بكثير.

-طبعًا يا ليلة ما إنت حلوة، وزي القمر، وطبعًا لازم تغير منك هي، وكل الستات.

ردت عليه ليلى منكرة.

-يا سلام حلوة إيه، وغيرة إيه ؟دا أنا مش عجباها..

-لا... لا إنت عجباها أكتر من اللازم...

-مش ملاحظ إنك بتبالغ أكتر من اللازم... خصوصًا إن سوسن زي القمر، وأحلى مني كمان..

ابتسم لها خالد .

-موضوع مين الحلوة، والأحلى ده سيبيه ليا أنا إللي أحكم فيه، لكن الحلاوة مش في الشكل أحيانا الشخصية بتضفي جمال لا يمكن حد يقاومه .

نظرت له ليلى بمكر طفولي، فرد عليها ضاحكًا :

-يعني كفاية راسك إللي عايزة كسرها...

ارتفعت ضحكات خالد أمام غضب ليلى الطفولي الذي ارتسم على وجهها...رغم ما أظهر خالد من أن أمر سوسن، وغيرتها من الأمور التي لا تستحق أن تهتم ليلى بها، واستطاع أن يقنع ليلى بذلك، فقد كان يعلم أن حقد سوسن لن يقف عند حد الكلمات اللاذعة، وإنما يمكن أن يتعدى ذلك بكثير.

(١١)

أعد خالد خطة محكمة لمعرفة كل ما تدبره سوسن في الخفاء للنيل من ليلى، لم يبذل خالد مجهودًا كبيرًا في معرفة تحركات سوسن، وتحديد كل أعوانها، فتحركات البلد كلها تصله، ومنها الاجتماعات السرية التي تعقدها سوسن مع هناء، والخالة حسنات.

كان خالد يعرف تفكير سوسن العقيم، ويعرف جيدًا ما قد تلجأ إليه من حيل بلهاء قد تلحق الضرر بليلى، فكان خالد يحرص على ألا يفارق ليلى عندما توجد سوسن عندهم في الدار..

وصدق حدس خالد، ففي مساء أحد الأيام أحضرت سوسن الشاي للجميع، أخذت ليلى بكوب الشاي، ورشفت منه رشفة واحدة، وأحست بطعم غريب لم يمهلها خالد لحظة، وأخذ منها الكوب، ورفعه على فمه ليشربه هو... كان خالد ينظر إلى سوسن، وهو يعلم تمام العلم رد فعلها السريع بأخذ الكوب منه مدعية بأن الخادمة ربما أهملت في غسله، وهذا ما تسبب في أن الشاي طعمه غريبًا.

أطلق خالد سهامًا حادة من عينيه أربكت سوسن حتى كاد كوب الشاي يسقط من يديها... لحق خالد بسوسن في المطبخ، وبحدته المعروفة أصدر أوامره .

-مش عايز كلمة... شغل الأعمال، والعفاريت ده بطليه عيب عليكي إنت متعلمة، وكمان واحدة مديالك الأمان، وبتشرب من إيدك، وإنت تخونيها، هي خيانة جوزك الدايمة بهتت عليكي، ونستك تربيتنا فيكي.

انهارت سوسن تبكي بكاءً حارًا، وازداد احتقارها لنفسها، وهي ترى نظرات الازدراء في عيني أخيها، فعادت مسرعة إلى البيت، وهي لا تريد أن ترى أحد، أو يراها أحد، وظلت طوال الليل تلعن زوجها الذي حولها بأفعاله الشنعاء إلى امرأة يحتقرها الجميع، ويعيرونها بزوجها، وأفعاله...

فقد شعرت سوسن بأن الكل يعلم بفعلتها.... رأت الاحتقار في عيونهم، وهي تغادر المنزل.... العار لها فقد افتضح أمرها... حتى ليلى شعرت بل فهمت ما فعلته سوسن، لكنها لم تشاء أن تزيد الأمر سوءًا، فالتزمت الصمت.

لم يترك خالد الأمر يمر دون أن يتدخل، فأصدر العديد من القرارات الخاصة بتنظيم العمل في المطبخ، وجعل الإشراف الكامل لأمه على كل ما يقدم من طعام، وشراب تجنبًا لأي عمل طائش آخر.

كان خالد يظن أنه بهذه القرارات قد أحبط خطط فريق الضغائن، لكن لم يكن الأمر بمثل هذه البساطة ؟!

فقد كان هناك الخالة حسنات التي تولت راية القيادة بعد انكشاف أمر سوسن التي آثرت الابتعاد عن بيت العائلة في تلك الفترة... ضمت حسنات ابنها حسان إلى الفريق الذي قرر أن يوجه الضربة القاضية لليلى.

كانت ليلى غافلة عما يخططونه ضدها، فقد كانت تعتقد أنها على علاقة طيبة بهناء، فهي تهتم بأبنائها، وتتابع معهم دروسهم، لكن هل يشفع

المعروف مع فريق الضغائن ؟!

كانت هناء ترصد تحركات ليلى، وتخبر خالتها، وزوجها بها، وبذلك استطاع الثلاثة وضع خطة للإيقاع بالفتاة...

دعت هناء ليلى لتشارك أهل البيت في إعداد طعام الغذاء... رحبت ليلى بكل براءة، فلم يكن لديها عمل عاجل تؤديه... وفي الوقت ذاته وصلتها أخبار عن تقدم العمل في مزرعة الفيوم، فأسرعت تزف الخبر للأم، والجدة، وسوزان... كانت الفرحة تملؤها، فاقترحت عليهم أن تقوم بإعداد طبق خاص احتفالًا بتلك الأخبار السعيدة...

رحب الجميع باقتراح ليلى، والغريب أن الخالة حسنات رحبت هي الأخرى بمبادرة ليلى للاحتفال.... كانت السعادة تملأ ليلى، وهي تتحدث، ووجهها مشرق صبوح، فانتهزت الأم الفرصة كالعادة، ووجهت مجرى الحديث كله نحو خالد، ونسبت له الفضل كل الفضل فيما حدث.

-والله يا ليلة لولا خالد ما كنش حد اهتم، أصل خالد ده عليه هيبة الكل بيسمع كلامه.

ابتسمت ليلى، ولأول مرة ينتابها شعور غريب، وكأن هناك رسالة ما تلح الأم على توصيلها لها... قبل أن يأخذها الخيال بعيدًا طلبت منها هناء الذهاب إلى الحديقة لقطف بعض عيدان الريحان لاستخدامها في الطهي.

رحبت ليلى بطلب هناء، وذهبت إلى حيث وصفت لها مكان حوض الريحان... كان المكان خال من البشر، وبالقرب من المخازن الملحقة

بالمنزل وقفت ليلى تقطف عيدان الريحان، وهي مستمتعة برائحتها الجميلة، لكنها أحست بشخص يقترب منها، لم يكن هذا الشخص هو خالد، فليلى تعرف خطوات خالد تمام المعرفة، فهي تشعر به حتى قبل أن يقترب منها...

أفزع ليلى اقتراب شخص منها غير خالد، فالتفتت مسرعة لتجد حسان يمسك بذراعها، ويشهر مسدسه في وجهها، ويأمرها بأن تسير دون أن تنطق بكلمة.

كان حسان يجذبها بقوة، وهو يسير بها متجهًا للمخزن، وقذفها بداخله كما يقذف أي قمامة يريد التخلص منها في سلة المهملات... كان الفزع يملأ ليلى، ولم تعرف ماذا تفعل، لكنها تمالكت نفسها في النهاية، وقبل أن تنطق بكلمة بادرها حسان بالكلام .

-أنا حا خليكي هنا لحد ما تتربي، وتحطي عقلك في راسك، وتمشي على بلادكم من غير ولا نص كلمة، وأوعي تفكري إن حد حا يعرف مكانك هنا حتى لو صرختي بعلو صوتك، وقبل ما تسافري لازم تمضي على الورق إللي بتتنازلي فيه عن كل حاجة لك تربطنا بيكي.... يا له غوري وربنا يكفينا شرك، وأوعي تفتكري إنك ممكن ما تنفذيش إللي قلته، وإلا والله أدفنك مطرح ما إنت واقفة.

خرج حسان من المخزن، وأغلق وراءه الباب، وليلى قد أصابها الذهول مما حدث، وظلت تسأل نفسها .

«لماذا يفعل حسان معي كل ما فعل؟! وهل هناء مشتركة معه؟ طبعًا هذا لا يحتاج أي شك لكن لماذا؟! ألست أنا من تهتم بأولادهما،

أم تراهما على اتفاق مع أصحاب قضية الفساد، ليس بغريب أن يكون أصحاب القضية قد وصلوا إليهما كما فعلوا مع بعض عمال المزرعة... ما هذا الهراء ؟!... يا الله !!»

وقبل أن تغرق في بحار الحيرة رأت صورة خالد التي تجسدت أمامها، فأسرعت بالاتصال به، وهي تسخر من هناء، وخططها البلهاء هي، وزوجها .

«آه يا لها من بلهاء هي، وزوجها ألم يلاحظ أي منهما أن الهاتف لا يفارقني أبدًا، يا الله لقد اكتسبت هذه العادة أثناء مرض والدي، فقد كنت أخشى أن يحدث له مكروهًا في أي وقت.... والآن ها هي هذه العادة تنقذني... ما أعظم دعاء الوالدين !!»

أسرعت ليلى بالاتصال بخالد... ملأ الهلع خالد، فهرول إلى المخزن... ضرب الباب بقدمه، فكسره، واندفع نحو ليلى يأخذها بين ذراعيه.

ارتمت ليلى في أحضان خالد، ودقات قلبها الهلع تدق كالطبول لتتناغم مع دقات قلب خالد التي كانت تصرخ فزعًا... كان خالد يضم ليلى بقوة، وكأنه يريد أن يخبئها بين ضلوعه حتى لا يقترب أحد منها.

ملأت الدموع مقلتي خالد، وأختنق صوته بها .

-إنت بخير ؟

لم ترفع ليلى رأسها لتنظر إليه، وظلت تدفنها في صدره، وهي تردد:

-أنا كويسة..

أغلق خالد عينيه، وهو يردد:

-الحمد لله... الحمد لله.

بدأت أنفاس خالد، وليلى اللاهثة تهدأ، وتخلت دقات قلبيهما عن أصوات الطبول لتعزف لحنًا هادئًا على أنغام الكمان.

(١٢)

وقف خالد وسط بهو المنزل يزأر كالأسد الهائج آمرًا الجميع ليحضروا... كان صوته يكفي لتتجمد الدماء في عروق الجميع، فما بالك بحسان، وقد أدرك أن خالد كشف فعلته الحقيرة... كان حسان كالجرذ الخائف لا يقوى على التنفس.

وقف خالد ، وكل من في البيت من حوله، لكن العاملين في البيت فروا هاربين، فقد أدركوا أن هناك حدث جلل في العائلة، ولن يسمح خالد لهم بالتواجد، فآثروا السلامة، وفروا إلى أبعد مكان ليبقى خالد مع عائلته لم يستغرق الوقت طويلًا، فقد اتجه خالد مباشرة نحو حسان.

كاد حسان أن يخر على الأرض مغشيًا عليه... لم يرق قلب خالد لحاله، بل ازداد حنقه عليه، فوجه له العديد من اللكمات، وطرحه أرضًا ثم انهال عليه ركلًا بقدميه، وحسان يستعطفه، ونساء الدار يحاولن إبعاده لكن دون جدوى بل ازداد خالد عنفًا، وهو يصيح :

-يا خسيس يا واطي تتعدى على الحريم إللي في داري... يا واطي ماشي ورا النسوان.

انخلع قلب هناء، وارتعدت حسنات، وظنت كل واحدة أن الدور عليها، فحاولتا الهروب لكنهما كانتا متجمدتان في مكانهما من شدة

الهلع، وهما يريان خالد، وقد أجهز على حسان الذي كانت الدماء تغطي وجهه، وخالد يواصل الضرب يكاد أن يفتك به.

أسرعت ليلى نحوه، ووقفت حائلًا بينه، وبين حسان تستعطفه.

-خالد لو سمحت أنا مش متحملة المناظر العنيفة دي... أرجوك كفاية...

توقف خالد، وهو يصيح بأعلى صوته.

-والله يا واطي لو فكرت تدوس على خيال ليلة لأجلدك... والله أجلدك..

هرول حسان هاربًا والدماء تملأ وجهه... هرعت حسنات تفر وراء ابنها، فحاولت هناء استغلال الموقف لتفر هي الأخرى، لكن خالد أوقفها، وصاح فيها :

-هناء اطلعي فوق إنت حا تفضلي لحد ما جوزك يبقى راجل، ويبطل يمشي ورا أمه سيئات... ووراكي إنت، وأختك المجنونة.

لم تنطق هناء بكلمة، وأسرعت تنفذ أوامر أخيها، وهي تخفي وجهها من شدة الخجل وسط ذهول الجميع مما حدث.

أحاط الصمت بالجميع، وكأنهم تحولوا فجأة إلى مجموعة من التماثيل، وأخيرًا قطعت ليلى حبل الصمت.

-هو أنا عملت أيه عشان كل ده لو مش عايزيني أقعد معاكم أنا أمشي على طول.

استنكرت الجدة بشدة ما قالته ليلى، أما الأم فقد ظلت واجمة، وأخيرًا تحدثت، وهي تخفي دموعها المختنقة.

-أنا آسفة يا بنتي أنا إللي غلطانة أنا ما عرفتش أربي بناتي.

هنا تدخل خالد، وتحدث، وآثار الغضب مازالت تسيطر على كل خلجاته.

-الموضوع انتهى... شوية عيال غلطوا، وأنا ربتهم...

ثم توجه إلى ليلى.

-وبعدين يا ليلة ده بيت العيلة مفهوم... بيت العيلة، والكل فيه زي بعض.... إنت مش قاعدة فوق راس حد... إنت قاعدة في بيتك.

رغم أن خالد قد حسم الموضوع، أو هكذا ظن، لكن التوتر استمر سائدًا باقي اليوم... لم يستطع أحد أن يتناول أي طعام، وظلت هناء مختبئة تخشى أن يدق أحد بابها، كان قلبها ينخلع هلعًا كلما سمعت أصوات أقدام بالقرب من بابها، واختبأت سوزان هي الأخرى في حجرتها فقد كانت تشعر بالخجل من أفعال أختيها، ولا تدرى ماذا تقول لليلى.

بقيت الجدة في حجرة ابنتها تواسيها، وترأف بحالها حتى تخفف من حسرتها، وخيبة أملها في ابنتيها... سرعان ما تتحول دفة المواساة نحو الجدة التي كانت تتحسر هي الأخرى على ابنتها التي أصابها «الخرف» لتقدم على هذه الفعلة الشنعاء.

جلست ليلى في حجرتها لا تصدق ما حدث، وترتجف كلما تذكرت منظر حسان، وهو يهددها، ومنظره، والدماء تنزف منه، لكنها في نفس الوقت وجدت قلبها يعزف كل ألحان السعادة... تعجبت ليلى من حال هذا الطفل العابث، فسألته:

«لماذا يا قلبي تتملكك السعادة، ماذا حدث ليسعدك ؟ حقًاُ أنت لا

عقل لك لتفرح قي مثل هذا اليوم الدامي... لكن لماذا أتهمه بالهذيان،، وأنكر عليه فرحته ألم يختبأ بين ضلوع خالد... لا... لا يا ليلى ما حدث من خالد كان رد فعل طبيعي، لقد كان مجرد خوف ابن عم على بنت عمه، وقلبي مازال بين ضلوعي، ولن أسمح لهذا العابث أن يتصرف برعونة، ويفر مني ليبقى بين ضلوعي، ولا شأن له بخالد، لكن هل أنا صادقة فيما أقوله، ولدي حقًا القدرة على اتخاذ القرار أم أن الوقت قد فات، وأصبح قلبي الآن ينعم بحنان خالد، ولن يلتفت إليَّ مرة ثانية ؟!»

أغمضت ليلى عينيها، وعانقت وسادتها، وهي تسأل نفسها :

«هل سيأتي اليوم الذي يختبئ فيه قلب خالد بين ضلوعي أم أن ذلك لن أراه إلا في الأحلام»

أسرعت ليلى، ورمت بنفسها في بحار النوم العميق، فقلب خالد ينتظرها هناك..

لم تكن ليلى تتوهم، فقلب خالد قد تركه جالسًا في الحديقة يفكر في ليلته، وطاف هو حول نافذتها يطمئن عليها حتى إذا أغلقت نور حجرتها، وغرقت في أحلامها عاد لصاحبه يحمل له البشارة بأن ليلى قد تجاوزت ذلك اليوم الكئيب.

هدأت نفس خالد القلقة، وترك الحديقة، واتجه إلى المنزل... ما إن دلف إلى البيت حتى وجد الأم، والجدة تطلباه على وجه السرعة...

اجتمع الثلاثة في حجرة الجدة... أحكمت الأم إغلاق بابها، فشعر خالد بالتوتر من حالة الجدية، والسرية المحاط بها... دون مقدمات حدثته الجدة .

-خالد إنت لازم تتجوز ليلة.

اندهش خالد من كلام الجدة، ولم يستطع الرد، وزاد من دهشته مشاركة الأم الجدة في الرأي بل تأكيدها على ضرورة الإسراع... سألهما خالد بحدة.

-ليه عشان إللي حصل النهاردة ؟

ردت الأم مبتسمة.

-ده طلع كل إللي في قلبك... من يوم ما جت ليلة، وأنا حاسة بيك... وبعدين إنت مش طول عمرك نفسك في بنت تناغشك خلاص جاتلك إللي بتناغش، وتشاغب كمان.

أكملت الجدة كلامها.

-إنت كبرت، ومفيش بنت في البلد عجباك... دى طوبة... دى جاهلة... دى مش متفتحة...والحمد لله أخيرًا ربنا استجاب لدعانا، وجت لك بنت عمك، ودي مش عجباك، وبس دا إنت بتحبها، وبتحبها قوي كمان... دا إنت مجنون بعشقها.

رد خالد بانفعال .

-حب إيه، وكلام فارغ إيه... هو أنا بتاع المسخرة دي.

تبادلت الأم، والجدة النظرات في تعجب من أمر خالد... ماذا حدث له... كانت كل منهما تظنه سيطير فرحًا عند مفاتحته في هذا الأمر، لكن على العكس لقد أظهر انفعال وحدة، وعصبية هذا غير ما ارتسم على وجهه من ملامح الضيق، والغضب، وأخيرًا صاح خالد لأول مرة في حياته في وجهي الأم، والجدة:

-أقفلوا الكلام في الموضوع ده نهائي.... مش عايز حد يكلمني فيه تاني...

غادر خالد حجرة جدته مسرعًا وسط حالة من الوجوم انتابت الأم، والجدة...

لم يعد خالد على حالته السابقة مع ليلى، فقد وضعت كلمات جدته، وأمه جدارًا بينه، وبين ليلى... لم يختلف أسلوب خالد معها بشكل يمكن أن يلاحظه أي شخص غير ليلى التي شعرت بكم التغيير في معاملة خالد لها... نظراته كانت تبتعد عنها... تهرب منها حتى لا تغافله وتعانقها... كلماته كانت محددة... مناقشاته معها في حدود الاتفاق حتى لا يدخل معها في دائرة «المناغشة»... وأخيرًا تجنب موعدهما غير المتفق عليه في الحديقة ليلًا.

لم يكن خالد وحده هو الذي شعرت ليلى بتغير معاملته معها... فالأم كانت تشعر بالخجل الشديد منها، فها هم أبناؤها الثلاثة لا تعرفهم، ويتصرفون مع ليلى على عكس ما كانت تتوهم، ماذا حدث لأولادها أيمكن أن تكون بعيدة كل البعد هكذا عنهم، ولم تعد تعرفهم حتى خالد أساء إلى ليلى، وربما كان ما فعله معها أشد قسوة مما فعلته سوسن، وهناء.

شغل هذا التفكير ذهن عواطف، ولم تستطع أن تطرده من رأسها، بل كانت صور أبنائها تطاردها، وهم يحاولون النيل من هذه اليتيمة المسكينة، وكلما حاولت الابتعاد عن تلك الصور تجد نفسها تبتعد عن ليلى... احتارت ليلى في أمر الأم، ولم تعرف السبب فيما يحدث، وزادت حيرتها

عندما ذهبت إلى الجدة لترعاها، ووجدتها تدعي النوم، فلم تكن بأحسن حال من الأم، بل ازدادت الصور التي تطاردها لتنضم لصور الأبناء الثلاثة صورة حسنات هي الأخرى...

ظلت ليلى طوال الليل تفكر في أمر عائلتها، وما حدث منهم.... أيمكن أن يتحولوا هكذا، وبمثل هذه السرعة : نصفهم يعلن العداء صراحة لها، ويحاول التخلص منها، والنصف الآخر تتغير معاملته لها تمامًا بلا أي سبب... حتى خالد... آه خالد التي توهمت للحظات أنها استودعت قلبها بين ضلوعه أصبح شخصًا مختلفًا «أيمكن هذا؟!»

ظلت ليلى تردد هذا السؤال مرات، ومرات، وفي كل مرة كانت تبدأ من حيث انتهت... كانت تراه، وهو يدافع عنها، ويقف بجوارها في كل المواقف العصبية التي مرت بها، وفي نفس اللحظة تخبو تلك الصور لتحل مكانها صورته، وهو يبتعد عنها... ماذا هل عصبيته نحو أقاربه تجعله يحاول التخلص منها...

«ما هذا الهذيان ألست أنا أقرب شخص لخالد... أنا بنت عمه، فماذا حدث ؟!»

عادت ليلى تسأل نفسها، وازدادت حيرتها في أمر الجميع، وفي النهاية وجدت أن من أشهر سيف العداء كان واضحًا أكثر من الذين أظهروا المحبة، فالكل واحد، والمعنى واحد ألا وهو أنها أصبحت شخصية غير مرغوب فيها، وعليها الرحيل... الرحيل، ولا شيء غير الرحيل...

(١٣)

لم ترغب ليلى في أن تخبر أحد بما عزمت عليه، فالأمر لن يختلف كثيرا لتحقق لهم ما يريدون، فبرحيلها سيكون الحال أفضل... على الأقل ستخرج هناء من غرفتها بلا خوف أو خجل، وقد تعود إلى بيتها، وأولادها... أما سوسن، فمن المؤكد أنها ستستأنف زيارتها اليومية لعائلتها...

والأهم خالد الذي سترفع عنه ليلى الحرج، فهو لا يمكن أن يعلن أنه يرغب في مغادرتها بيت العائلة، والعودة لبيتها وسط كم التهديدات التي تحيط بها لذا فأفضل ما تقوم به... هو ترك المكان دون أن تخبر أحد.

في الصباح الباكر، وبعد أن تأكدت ليلى من أن الجميع تحجج بحجج واهية حتى لا يجتمعون معها على مائدة الإفطار صعدت ليلى إلى غرفتها، وبدلت ملابسها، وارتدت الملابس التي جاءت بها يوم أن أحضرها خالد...لم تكن ليلى تعرف هل كانت الملابس خفيفة بالنسبة لهذا الجو من العام أم أن برودة المشاعر التي تحيط بها قد جعلتها ترتجف.

نظرت ليلى حولها، فوجدت الشال الذي أهداها خالد إياه.... لم ترغب ليلى في ارتدائه في البداية، لكنها وجدت نفسها تلفه حول ذراعيها، فبدأ الدفء يسرى في أوصالها... كانت تشعر بسعادة ممزوجة بالشجن، وظلت تسأل نفسها :

«أحقًا كنت مخطئة في أمر خالد أيمكن أن أكون قد فسرت تصرفاته على خلاف حقيقتها... هل أنا بمثل هذه البلاهة حتى لا أستطيع أن ألاحظ الفرق، ولكن الفرق بين ماذا ؟! إن خالد لم يظهر لي أي مشاعر، ولم يقل لي... لا.. لا أنا لم أكن مخطئة...ماذا تعني تصرفاته معي... قلقه... لهفته.... آه لكن ماذا يعني سلوكه معي في الفترة الأخيرة ؟! لا أكن حمقاء... لأحمل عصاي، وأرحل فقد أصبحت عبئًا ثقيلًا على كل من حولي».

خرجت ليلى من حجرتها، وهي تدعو الله بألا يراها أحد، وغادرت المنزل مسرعة... سارت لمسافة طويلة حتى بعدت عن المنزل، ثم استقلت أخيرًا إحدى السيارات الأجرة لتقلها إلى محطة القطار، وحجزت تذكرة في أول قطار سيصل إلى القاهرة.

كانت هناك فترة زمنية ليست قصيرة على موعد القطار، لكنها لم تشاء مغادرة المحطة، وجلست على إحدى المقاعد تنتظر قدوم قطارها... أمرت ليلى عقلها بأن يكف عن التفكير فيما حدث، ولتستعد الآن لمواجهة أخرى تنتظرها في القاهرة...

ورغم أن ليلى كانت على يقين تام من حجم المواجهات التي تنتظرها، وكم الشرور التي ستستقبلها، فلم تكترث بأي شيء، بل أحست أنها أصيبت بنوع غريب من تبلد المشاعر، فوضعت رأسها بين راحتيها حتى لا ترى أي شيء...كانت هناك يد حانية تعرفها كل المعرفة أمسكت بيدها، فانتزعت ليلى يدها مسرعة، ونظرت بشراسة .

-إبعد إنت ما بتحبنيش لا إنت، ولا عيلتك كلكم مش عايزيني خلاص

أنا مروحة.

كانت عبارتها، وأسلوبها أقرب من أن يصدروا من طفلة صغيرة من أن تتحدث بهم فتاة في عمر ليلى، فابتسم خالد لها، وجلس بجوارها.

-ليه يا ليلة عايزة تحرقي قلبي عليكي ؟!

ازدادت حدة ليلى.

-خلاص أنا مش حوريكم وشي إللي مضايقكم.

ً ملأت الدموع المتحجرة مقلتي خالد.

-ليه الظلم يا ليلة حرام عليكي.

أحست ليلى بالشجن في صوت خالد، فحاولت أن تكون أقل قسوة.

-مين إللي أتظلم يا خالد ؟!

-ليلة إحنا عيلة ووارد إن يحصل أي حاجة بينا زعل خناق... وغيره، لكن ده ما يعنيش أن حد يسيب بيت العيلة.

عادت ليلى لقسوتها، وتحدثت بحدة عن كل ما حدث من مؤامرات، وما تدل عليه من كراهية.

-ولو الأمر انتهى على كده كان مش مهم، لكن ماما، والحاجة، وحتى سوزان بعدوا عني.... وكمان إنت...

لم تستطع ليلى إكمال كلامها، وغلبها البكاء، لكنها سرعان ما جففت دموعها، ورفعت رأسها في كبرياء.

-فعلًا... معك حق ده بيت العيلة، وأنا زي زيكم، وإللي مش عاجبه عنده فيلا المعادي.

ابتسم خالد عندما وجد ليلى قد عادت لطبيعتها، واستردت قوتها، فرد عليها مشاكسًا .

-لكن فيلا المعادي ملكي أنا، وإنت فقط...

-ما إنت أكتر واحد متضايق من وجودي، وده واضح من أسلوبك الغلس معايا... خلاص روح فيلا المعادي إللي كلها مرض، وموت، وضلمة، وعفاريت... يا رب النور ينقطع، ويطلع لك كل العفاريت.

انفجر خالد في الضحك أمام هذه الطفلة التي تقف في وجه أكبر المفسدين، وتخاف من انقطاع تيار الكهرباء.

-لكن يا ليلة أنا لي نص العفاريت، والنص التاني من نصيبك.

لم تبادله ليلى الضحكات، بل نظرت له في تكبر، واتجهت للعودة إلى المنزل، وكلها تحدي، وتصميم على أخذ حقها كاملًا في الميراث، فالعائلة هي ميراثها، وهي لن تتركه من أجل حفنة من الأشخاص حتى، ولو كانوا هم العائلة يجب أن يرضخوا جميعًا لحكم الشرع، ويعطوها حقها سواء كان ذلك بكامل إرادتهم أم أجبروا عليه، فالحق يجب أن يعطى لأصحابه.

كان أول ما فعلته ليلى أن اتجهت هي وخالد إلى منزل سوسن، ودعتها للذهاب إلى بيت العائلة.... شعرت سوسن بالخجل الشديد من نفسها، وأبت في بادئ الأمر، لكن أمام إلحاح ليلى، وإصرار خالد رضخت للأمر، وهي تكاد تقفز من فرط السعادة.

دلف الثلاثة إلى المنزل، والبهجة تملؤهم، فعم المكان السرور، واختفى الخجل، والأسى، وجميع المشاعر السلبية من وجهي الجدة

والأم، وعادت كل منهما لطبيعتها...

نادى خالد على هناء، وجعلها تعتذر للجميع، ثم سمح لحسان بعد ذلك بأن يصحب زوجته إلى منزلهما، وهكذا عادت الأسرة إلى سابق عهدها، وتجمعت من جديد حول مائدة الطعام.

كانت ليلى أكثرهم سعادة، ونست كل ما حل بها من آلام، بل على العكس اعتبرت كل ما فعلته سوسن أو هناء مجرد «مقالب» سخيفة كل الأخوات يفعلنها، وبدأت هي الأخرى في التفكير في كيفية رد مثل هذه «المقالب» الصبيانية لهما، لكنها ظلت تشعر بالألم من جراء تصرفات خالد معها، فحتى إن كانت قد أساءت فهمه، وهو لا يكن لها أي مشاعر، فلماذا تغيرت معاملته لها، وكأنه يوجه لها رسالة بمغادرة المكان... لكن كيف، وهي ما إن حاولت الفرار حتى وجدت يدي خالد ممدودتين لها لتعيدها للبيت مرة أخرى...

تقاذفت ليلى أمواج الحيرة، فصاحت في ضجر :

«آه يا خالد كم أنت محير ؟!»

لم تكن ليلى هي وحدها التي تحتار في أمر خالد، فعواطف لم تقتنع برفض ابنها الزواج من ليلى، وحاولت أكثر من مرة التلميح له في الحديث، لكن كان صده لها يقلقها...

كان خالد يرى القلق في عيني والدته، لكنه لأول مرة لم يستطع أن يزيل القلق عنها، وفضل ألا يبوح بسر قلبه... كان خالد يقضي الليل يفكر في ليلى التي ابتعدت عنه صراحة وكفت عن السير في الحديقة ليلًا..أما هو فقد كان يجد في الحديقة سلوته ينتظر أن ترضى ليلى عنه، وتعود إلى

حديقتهما يجلس حيثما كانا يجلسان معًا ناظرًا إلى نافذة حجرتها عله يلمحها، فيصيح قلبه ألمًا.

«آه يا ليلة لكم أشتاق إليك... إلى طريقتك في الحديث... كلامك... صمتك... ألفاظك... أشتاق للسير بجوارك، والليل يخيم على المكان... أشتاق لعبيرك الخاص الذي أميز على بعد أميال... أشتاق لنظراتك الحنونة... الخجلة... الشرسة حتى حدتك معي أشتاق إليها، لكن ما عساي أن أفعل، وقد أصدرت عفوًا عن الجميع لكن لم يشملني هذا العفو؟!»

هنا صاح خالد في قلبه مؤنبًا إياه :

« ماذا تريد أيها العابث : أن تصدر ليلة عفوًا عنا، وقتها ماذا سنفعل... إن أي لفتة ستفتح علينا آلاف الأبواب من الأسئلة، والاتهامات كيف سأواجه أمي، وجدتي، وماذا سأقول لهما... أحب ليلة، ولكن أرفض الزواج منها... لكن كيف يمكنني أن أعرض عليها الزواج، وهي في حمايتي... أأساومها على الحماية ؟! أيعقل ذلك ؟! كيف يا ربي أحدثها في أمر كهذا إن والدتي، وجدتي تطلبان مني المستحيل، لكن ماذا لو رحلت... ماذا لو أحبت شخصًا آخر... ماذا لو ارتبطت أو تزوجت ؟؟!!»

كانت صرخات الألم تكوي قلب خالد، وهو في حيرة من أمره لا يدري ماذا يفعل، ووسط حيرته تلك وجد يد حانية تهبط على كتفه، وصوت حنون يهمس له:

-إيه يا خالد إللي واخد عقلك ؟

لم يتمالك خالد نفسه من الفرحة، وامتلأ وجهه بالابتسامات.

-آه... لا... ليلة.

حدثته ليلى بصوت يملأه شقاوة الأطفال .

-أنا عارفة إنك مش طايقني، ونفسك أسيب البيت لكن هيهات.

وجم خالد مما قالته ليلى.

-إيه يا ليلة إنت متسامحة مع إللي ظلموكي، ومع ذلك بتظلميني عمال على بطال.

-يا سلام أظلمك إنت بتغلس، وعلى طول مكشر، وأنا مش عارفة إنت بتعمل كده ليه.

نظر خالد لها، وسبح في بحار التفكير شارد الذهن.

«آه يا ليلة لو تعلمين ماذا حدث، لكن ماذا أقول لك ؟! هل أصرخ بكلمات الحب، وأخر راكعًا عند قدميك، أم أضمك إلى صدري عل قلبي يتولي هذه المهمة بدلًا عني»

أفاق خالد من شروده على صوت ليلى.

-إيه يا خالد سرحت تاني في إيه ؟

-أبدًا...أبدًا.

اندفعت ليلى في الحديث.

-أنا عملت النهاردة حاجة يمكن ما تعجبكش لكن حصلت أعمل إيه؟

نظر لها خالد، وهو يبتسم في حنان، فشجع ليلى على الحديث بتلقائية عما فعلته في ذلك الصباح، فقد وجدت إحدى النساء تستخدم أسلوبًا غير

مناسب في تنظيف حمارها، وعندما وجهتها لخطأ ما تفعله ثارت عليها رافضة ما تقوله، فما كان من ليلى سوى أنها حملت دلو المياه الذي كانت تستخدمه، وأغرقتها بالماء .

-وبعدين عرفت إنها بنت عيلة كبيرة في البلد... بصراحة هي رقية أخت سيد، وهي فضلت تصرخ، وتهدد، وهي بتقولى عن النسب إللي بينكم، لكن إيه أسيب الحمار تبهدله أطلق خالد ضحكة صافية أزالت جبل الهموم الذي جسم فوق صدره.

-لا يا ليلة طبعًا الحمار مهم جدًا.

-يعني إنت مش زعلان... أنا بس خايفة لتحصل مشاكل.

ابتسم خالد ابتسامة كسولة، ورد عليها بهدوء:

-شوفي يا ليلة... أنا حياتي كانت هادية جدًا، وبلدنا بعيدة عن المشاكل، وكل يوم زي أخوه.

-آه لحد ما أنا جيت...

أكمل خالد جملتها ضاحكًا، وكأنه يداعب طفلة صغيرة.

-نورتي البيت.

وبتحدٍّ شديد ردت عليه :

-وحا فضل منوراه على طول.

لم تكن ليلى تدرك كم أسعدت هذه الجملة خالد حتى أنه ظل يردد «آمين» عدة مرات، ليحقق الله كلام ليلى، وتبقى معهم للأبد... كان خالد ينظر إلى ليلى، وهى واقفة أسفل شجرة البرتقال تتحدث بطلاقة، ووجهها يمتلأ بالمرح..انتبهت ليلى لنظرات خالد لها، فسألته:

-إيه مالك ؟!

لم يجبها خالد بل اقترب منها كثيرًا... شعرت ليلى بالارتباك، وحاولت التراجع للخلف، لكن خالد أشار لها بأن تظل واقفة كما هي، ومد يده ليقطف ثمرة برتقال كانت تتدلى من الشجرة فوق رأس ليلى.

لم تكن ثمرة واحدة بل ثمرتين ملتصقتين، ففصلهما خالد فوق رأس ليلى في تقليد للتفاؤل، والدعوة بطول العمر..تابعته ليلى، والسعادة المختلطة بالشجن تملؤها حتى إن الدموع خانتها، وفرت من عينيها الضاحكتين، وخالد يقدم لها إحدى الثمرتين، ويأخذ الأخرى... ابتسمت ليلى بشجن.

-بابا كان دايما يعمل معايا كده... خالد إنت... إنت..

شعر خالد بتردد ليلى، فشجعها على إكمال حديثها .

-لما مات بابا كنت بأدعو دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم... أللهم أجرني في مصيبتي، واخلفني خيرًا منها، وفي كل مرة كنت بأفكر مين ممكن يكون زي بابا لحد... لحد ما لقيتك يا خالد يومها أتأكدت إن ربنا استجاب لدعائي.

أطرق خالد رأسه، ونظر إلى الأرض، وأيقن أنه فعل خيرًا بعدم مصارحتها بحقيقة مشاعره... لتبقى ابنته الصغيرة التي يرعاها، أو ابنة عمه المشاغبة التي تحتمي في ديارهم.... لا يهم... المهم أن يراها دائمًا... أن تظل بجواره... أن يعودا لطبيعتهما المشاكسة معًا... أن يسير بجوارها كل ليلة في الحديقة.

قد يكون في ذلك عذابه أحيانًا... وثورة قلبه الدائمة، وهو يصرخ مطالبًا

بأن يرتمي بين حنايا قلب ليلى، لكن أي عذاب ما أجمل هذا العذاب، وهو يرى ليلى بوجهها المشرق الضحوك كالشمس المشرقة التي تنير المكان للجميع.

قد يلومه البعض، أو يتعجب من تصرفاته... يسيء الظن به، لا يهم، فقد حسم الأمر، وأغلق باب الحديث، وإن حاول أحدهم الحديث معه، والإشارة من قريب أو بعيد لما ينبض به قلبه، فلن يجد غير الإنكار..

لكن لم يكن حب خالد لليلى يحتاج إلى الاعتراف أو الإنكار، فكل من في القرية عرف به، بل انتقل إلى الأماكن الأخرى عرفه الأصدقاء، والمعارف، والأقرباء، والغرباء.... لم يوجد شخص رأى خالد أو ليلى إلا وعرف بأن هناك مشاعر فياضة تجمع بين قلبيهما، فالعيون دائمًا ما تفضح أصحابها، وتكشف أكاذيب اللسان...

لم يقتصر الأمر على المحيطين بخالد، وليلته بل إن المتربصين بليلى قد عرفوا بخبرهما معا، فوجدوا إنها فرصة مناسبة للانقضاض على ليلى، فالتعامل مع رجل السياسة، أسهل بكثير من التعامل مع تلك الفارسة القادمة من العصور الوسطى...

(١٤)

تلقي خالد دعوة غريبة بحضور إحدى جلسات الصلح بين عائلتين في قرية بعيدة نوعًا ما عنهم، والأغرب أنها تتبع محافظة مجاورة... تندر خالد من الدعوة، لكنه كان مضطرًا لحضورها....

كان الوقت قد تأخر كثيرًا، ولم يعد خالد بعد، فشعرت ليلى بالقلق عليه، وظلت تسأل طول الوقت عن سبب تأخره، وهل هذا أمر طبيعي، وغيرها من الأسئلة التي تدل على القلق، ولكنها في الوقت ذاته كانت تسعد الحاضرات حتى سوسن، وهناء رضختا للأمر الواقع، وتبادلتا نظرات الإعجاب مع الأخريات.

لكن الأم لم تكن راضية عما يحدث، وانتهزت فرصة خروج ليلى للحديقة بعد مغادرة سوسن، وهناء، وعقدت اجتماعًا مع الجدة، وسوزان أعربت فيه عن قلقها من تطور العلاقة بين خالد، وليلى... وأطلقت زفرة أسى .

-الكل بيتعامل على أن ليلة خطيبة خالد، وهو رافض الفكرة دي، ومش عايز يتكلم فيها.

صعقت سوزان مما سمعته، وأطلقت صيحة فزع.

- إزاي ده حرام... ليلة واضح جدًا إنها متعلقة بخالد... هو بيعمل فيها كده ليه ؟!

أكدت الأم كلامها.

-طب لو مش عايز يتجوزها زي ما بيقول يعلقها فيه ليه ؟!

لم توافق الجدة على كلام عواطف، وسوزان، وحدثتهما ناهرة .

-إيه الكلام الفارغ ده... خالد لازم يتجوز بنت عمه... يعني إيه رافض، ولا موافق... ده مجنون بعشقها.

تركتهما الجدة، وصعدت إلى غرفتها... أما الأم، فنظرت من النافذة لترى ليلى تترقب قدوم خالد في لهفة، فامتلأ قلبها بالحسرة على هذه الفتاة المسكينة التي تتعلق برجل لا يريدها مطلقًا، لكن أفعاله لا تدل على ذلك.... ازدادت حيرة الأم، فصعدت إلى غرفتها لتصلى، وتدعو الله إلى أن يهدي ابنها، ويتزوج ليلى.

حاولت سوزان أن تخفف من توتر ليلى، وقلقها على خالد، فهمت بالذهاب إليها لتجلس معها في انتظار خالد، لكنها تراجعت، وذهبت إلى غرفتها، والحيرة تسيطر عليها.

«ماذا سأقول لها... اهدئي فخالد لا يستحق قلقك أم أنه لا يستحق قلبك ؟! آه يا خالد لنترك الأمر للأيام علها تجد الحل المناسب».

انضمت سوزان هي الأخرى للجموع التي تدعو الله بأن يهدي خالد، وليلى كل منهما للآخر.

لم يقتصر هذا الدعاء على الأسرة بل شمل كل أهالي القرية تقريبًا، فالجميع أصبح يتمنى هذا الأمر، ويترقب حدوثه، بل هناك من نذر النذور ليتزوج خالد وليلى.... وقد حاول الخفير الذي كان في صحبة خالد أثناء ذهابه لجلسة الصلح أن يلمح له عما يدور في القرية، وانتظار الجميع

إعلان الخبر السعيد...

ظل الخفير طوال الطريق يحدثه عن سعادة الجميع ببقاء الدكتورة ليلى معهم، ودعوتهم الدائمة بأن يرزقها الله بابن الحلال، واستطرد الخفير موضحًا صفات ابن الحلال هذا.

-ما هو لازم ما يكنش أي واحد والسلام، دي الست الدكتورة... يعني لازم يكون ابن عز زيها، وزي عيلتها، ويكون متعلم زيها كده، ولا يكون دارس في بلاد الخواجات، ويا رب يكون من عندنا من بلادنا... فارس... عز... وجاه.

كان خالد يستمع لحديث الخفير، وهو يظهر عدم الاكتراث، لكن كانت كلامات الخفير تكوي قلب خالد... كانت أشبه بوضع الجمر الملتهب على الصدر العاري، فصرخ قلب خالد من حرقة الألم.

«ماذا يظنوني أهل القرية... متبلد المشاعر... لا أنبض بحب ليلة... آه ليلة الجنية الطيبة التي بعثتها الأقدار لتحلق بي في سماء السعادة... آه يا ليلة كم أهواك»

نهر عقل خالد هذا العابث.

«ماذا أيها العابث الحقير... إن ليلة ربيبة أرقى أحياء العاصمة... الأميرة بنت الأميرة.. ألأنها تمر بظروف عصيبة، ولحظات ضعف أسرق مشاعرها..ماذا لو ورطتها معي، وارتبطت بي... ألن يأتي اليوم الذي ستدرك جريمتي، وقتها لن أرى نظرات الحب في عينيها.... آه يا قلبي أتستطيع تحمل هذا العذاب... إن الجحيم لأهون منه بكثير...»

أنهك خالد الصراع الدائر بين قلبه، وعقله، فظل واجمًا طوال جلسة

الصلح، لم يظهر خالد أي اهتمام بما يجرى في جلسة الصلح، فهو في الأساس لم يكن مهتمًا بجلسة الصلح، ويعتبرها تمثيلية هزلية، فقضية الثأر لا تعالج بمجرد جلسة صلح يحضرها المسئولون، أو بمجرد نسب تكون البنت ضحيته دائمًا، لكن هناك جذور للمشكلات يجب حلها أولًا.

ورغم أنه لم يعلن ذلك صراحة، فهو يكتفي بتطبيقه في قريته، وها هو قد استفاد، ولو قليلًا بدراسته للحقوق، لكن كان على خالد أن يجاري تلك التمثيلية، فوضع على وجهه ابتسامة أقرب إلى الوجوم، وظل يصافح الحاضرين حتى جاء الدور على الحاج إبراهيم الصعيدي الذي طلب منه الحديث على انفراد.

كان الحاج إبراهيم شخصية معروفة لدى الجميع بأنه رجل الصفقات مهما كانت نوعها، فعندما انفرد بخالد أدرك وقتها خالد سبب دعوته لجلسة الصلح، وإنه لابد من وجود صفقة خاصة يريد الحاج إبراهيم عقدها معه...

كان خالد يعرف أسلوب الحاج إبراهيم الملتوي، فلم يتعجب من أمره... ظل الحاج إبراهيم يتحدث، ويتحدث، ولم يفهم خالد ماذا يريد، لكنه أحس بنبرة تهديد خفية في كلامه، فنظر له بحدة أرغمت الحاج إبراهيم على التحدث بأسلوب مباشر، وصريح.

فلم يكن الحاج إبراهيم سوى مندوب أصحاب قضية الفساد، وهم يعرضون الكثير على خالد مقابل ليلى... لا يهم ماذا يفعل معها المهم ألا تذهب إلى المحكمة، وإذا لم ينصاع لأوامرهم، فقد كان تهديدهم واضح، وصريح.

-إنت عارف إن من السهل جدًا عمل أي احتقان في الصعيد... كفاية أسرة مسلمة تقتل واحد من أسرة مسيحية، وعلى سبب ما فيش أتفه منه، ووقتها قضية التار تتحول مرة واحدة لفتنة طائفية كل وسائل الإعلام تتكلم عنها خصوصًا إن عندكم بنت الأميرة... يعني الموضوع ممكن ياخد شكل دولي...إيه رأيك لما يتعرض على إنه انتقام الأسرة المسلمة من المسيحيين إللي حرموا بنتهم من حقها، وقتها القصص تكتر، وماحدش يقدر يعرف حا توصل لحد فين.

لم يرد خالد عليه، وتركه، وذهب... عندما تبعه الحاج إبراهيم أطلق من عينيه وابلًا من النيران، وحدثه بصوت أشبه بهدير الرعد.

-لو حلمت إن حد بص لليلة بنت عمي حا أسبخ بجتته أرضي..

تركه خالد، والشرر يتطاير من عينيه، والحاج إبراهيم يقف مذهولًا، وقد صعقته كلمات خالد...

عاد خالد إلى البيت مسرعًا ليطمئن على ليلى... كانت ليلى تنتظره في الحديقة... ما أن رأته حتى جرت إليه مسرعة.... أمسك خالد بيديها، ونظر لها مبتسمًا، وسألها بمكر.

-إيه إللي مسهرك ؟!

لم يكن خالد يحتاج لإجابة على سؤاله، لكنه كان مشتاقًا ليسمع الرد من ليلى... تحدثت ليلى بطلاقة:

-كنت خايفة عليك... إنت كنت كلمتني عن إللي بيحصل لما عيلة تهيج على التانية، فخفت لا يحصل حاجة..

لم يترك خالد يدي ليلى، وطوقتها نظرات عينيه بقوة لتخبئها في مقلتيه،

وانطلقت عيناها تبوحان لليلى بكل خفايا قلبه ضاربتان عرض الحائط كلام العقل، وضلالاته، وهمستا إلى ليلى :

«اشتقت إليك يا حبيبتي... لم أكن أرى هناك أحدا غيرك، ولم أسمع إلا صوتك، فأنا في شوق دائم إليك، فأنا لا أريد من الدنيا كلها أي نعمة سوى أن تكوني معي دائمًا»

لم تكن عينا ليلى أقل فصاحة من عيني خالد، فهمستا هما الأخريان بخفايا قلب ليلى.

«وأنا اشتقت إليك... كان الوقت يمر بتكاسل، وكأنه يعاندني، فتمنيت أن أمسك بعصاك السحرية، وتحولني إلى طائر يحوم حولك، فأنا لا أقوى على البعد عنك، ولا أريد من الدنيا كلها أي نعمة سوى أن أكون معك دائمًا»

قاطع حوارهما الصامت صوت الخادم ينادي على الدكتورة ليلى، فالفرس متعب، واحتمال أن تلد الآن... أسرعت ليلى إلى الإسطبل، وتبعها خالد بخطواته الواثقة الثابتة.

(١٥)

استغرقت عملية توليد الفرس وقتًا طويلًا، فقد كانت الولادة عسرة، لكن في النهاية خرج المولود إلى الحياة وسط فرحة كل من كان في الإسطبل.

عندما غادر خالد، وليلى الإسطبل كان الليل قد ولى، وبدأت أشعة النور تغزو المكان، فاستبشر خالد خيرًا بالمولودين الفرس، واليوم الجديد...

سار خالد مع ليلى في عكس اتجاه البيت وسط الحديقة الفسيحة، أمسك خالد بيد ليلى ليستوقفها، وحدثها بصوت رخيم:

-تمني..لك خمس أحلام حا أحققها لك على وش المولود الجديد..

شعرت ليلى برجفة في أوصالها، وخالد يمسك بيدها، فحاولت إخفاء توترها، وتركت يده لترفع إحدى خصلات شعرها، وحاولت مشاكسته حتى لا يظهر ارتباكها .

-ليه همه مش كانوا سبعة ؟

-لكن إللي اتحقق خمسة..

-لا... ماليش دعوة... أولًا لي سبع أحلام، وكمان ما حلمك الأخير أنك تحقق كل أحلامي يعني...

قاطعها خالد ضاحكًا:

-إنت مش حا تبطلي المجادلة، والمعارضة في كل حاجة إيه راسك الناشفة دي إللي عايزة كسرها.

نظرت له ليلي بشراسة، وتحدثت كطفلة غاضبة:

-كسر راسي... كسر راسي.... كسر راسي ليه ؟!

ابتسم خالد مداعبًا طفلته المشاكسة ..

-خلاص يا ليلة قولي أحلامك السبعة، وربنا يقدرني، وأحققها لك..

وبصوت خافت نابع من الأعماق سبحت ليلى في بحار أحلامها، وتحدثت وكأنها تكشف عن أسرارها..

-نفسي أخلص من القضية...

-بسيطة الجلسة اتحددت، وهي قريبة.

أدخل كلام خالد الروع في نفس ليلى، وأحست أنها خرجت من عالم الأحلام الساحر لتصطدم بالواقع المرير، لكن نظرات خالد الحانية طمأنتها، وأعادتها إلى عالم أحلامها الجميل.

-الحلم التاني نفسي أنتهي من التجربة على العجول.

-كل عجول البلد تحت أمرك.

-كمان الدكتوراه، ولا دي حلم مستحيل...

رد عليها خالد ناهرًا :

-مستحيل إيه إنت نسيتي عصايتي السحرية... جامعة المنيا كلها معارفنا، وحبايبنا، ولا تحبي تاخدي الدكتوراه من بره...

نظرت له ليلى غير مصدقة إنه يتركها تسافر للخارج، فرد على نظراتها ضاحكًا:

-من جامعة أسيوط مثلًا..

شاركته ليلى الضحكات، وأحست أنه يملك عصا سحرية بالفعل، ويمكن أن يحقق لها كل الأحلام المستحيلة، فأغرقت في الخيال، ودخلت معه عالم الحكايات..

-حكى لي والدي عن حديقة جميلة كلها ورود، وأشجار، ومبنية على شكل مدرج، وسطها نبع ماء، وتحيطها الأشجار من كل اتجاه، فلا يصل إليها إلا من يعلم سرها...

أكمل خالد حكايتها..

-والورود فيها ألوانها مختلفة، وغريبة..

ظنت ليلى أنه يسخر منها، فنظرت له بغضب، وحدثته بتحد:

-طب أنا عايزة أروح الجنينة دي، وكمان عايزة الهريسة إللي بابا كان بيجيبها لي لما كان يسافر سفرياته الغامضة، وعلى فكرة دي مش زي أي هريسة.... دي ما فيش زيها... طعمها جميل، وكلها مكسرات... وبابا بس هو إللي كان يعرف هي بتتباع فين.

-ياه... دي حاجات صعبة قوي يا ليلة..

-فين عصايتك السحرية.

تبادل خالد، وليلى الابتسامات.

-طب دول خمسة.

ردت عليه ليلى بشقاوة الأطفال:

-آه سمعت كلامك... أحسن تكسر راسي.

أطلقت ليلى ضحكة صافية، وانطلقت تعدو نحو البيت كانت كفراشة تطير وسط المزارع الخضراء... تبعها خالد، ودلفا سويا إلى البيت..

كانت السعادة تملأ البيت بقدوم المولود الجديد... الكل أعلن أمنياته، ودعواته على وجه هذا الوليد، وبقي الدور على خالد، وليلى... دعا خالد للجميع بالخير، والسعادة، وأن يتم الله فرحة سوزان على خير.

انتهزت سوزان الفرصة، وسألت ليلى :

-بمناسبة الفرح يا ليلة هو إيه أخبار قلبك...

ردت عليها ليلى بتساؤل :

-قصدك إيه ؟

-يعني مافيش حب و لا ارتباط... خبر حلو...

صاح فيها خالد بحدة، والغيظ يتقطر من صوته :

-هي ليلة مش قالت لنا قبل كده إنها مش مرتبطة بحد..

نظرت له عواطف، وتحدثت بمكر :

-ده كان من فترة، وبعدين ما كنتش ليلة واخدة علينا عشان تحكي لنا الحاجات إللي مش رسمية، وفي الطريق ...

واصل خالد صياحه ..

-مش رسمية إيه ؟!وفي الطريق إزاي ؟ هي ليلة....

قاطعته الجدة بحدة..

-إيه يا خالد ما تسيب البنت تحكي لنا عن كل إللي في قلبها، هي لو مش حا تحكي لعيلتها...حا تحكي لمين ؟... إيه يا ليلة فيه كام واحد مجانين ليلة؟

ارتجف قلب خالد كأنه ينتظر الحكم في قضية عمره، وشعر بأنفاسه تختنق في صدره، وكاد أن يصرخ طالبًا أن يكف الجميع عن هذا الحديث القاتل، لكن ليلى سبقته، وردت، وهي تبتسم بخجل..

-أبدًا يا جماعة ما فيش حاجة لا رسمية، ولا غير رسمية، وكمان حب إيه، وارتباط إيه إللي بتكلموني عنه ناقص أحب راجل ...

رد خالد ضاحكا..

-لا رجل كرسي.

عادت ليلى لطبيعتها المشاكسة مع خالد..

-هو فيه رجالة دلوقتي ؟!... تعرف دا وليد زميلي فضل أكتر من سنتين يوسط طوب الأرض عشان أوافق عليه، ولما حصل موضوع القضية بقى لما يشوفني يدَيَّر وشه... يبقى ده راجل... كمان تفتكر واحدة كان والدها، ومحور حياتها واحد زي عمك ممكن يعجبها أي حد.

تلألأت عينا خالد من الفرح، وطوق ليلى بنظراته، وحدثها بصوت رخيم ناسيًا كل من حولهما.

-فعلًا عمي كان راجل مافيش زيه، ومصيبتنا في فقده كبيرة، لكن ربنا يجير المؤمنين، ويخلفهم خيرًا.

أطرقت ليلى تنظر إلى الأرض في خجل، لكن سرعان ما خانتها عيناها لتستقرا في أحضان عيني خالد، ولم تستطيعا الفرار من أسرهما...

شعر خالد بالسعادة تملأ الكون من حوله، فها هي ليلى تستسلم لأسر عيني من تحب... بقدر ما أسعد هذا الخاطر خالد بقدر ما أخافه، فلم يغادر حجرته من بعد صلاة العشاء، ظل طوال الوقت يتنقل بين أرجاء الحجرة يحاول النوم، لكن سرعان ما ينهض من فراشه، ويتجه للشرفة ليرى ليلى تسير في الحديقة بمفردها، فيظل يراقبها حتى تدلف إلى المنزل ليعود إلى فراشه ثانية...

لكن تظل عينا ليلى تطارداه... يحاول الفرار منهما، فيغمض عينيه ليرى ليلى ليجدها، وقد سيطرت على كل كيانه، فصرخ قلبه في صاحبه:

« لماذا كل هذا العذاب... فلتعترف لها بكل معاناتي..»

رد عقله بهدوء:

«مهلًا أيها العابث... صعب جدًا أن يحدثها خالد عنك الآن لننتظر حتى انتهاء المحاكمة..

قاطعة القلب محتجًا..

«ظالم لا تشعر بما أعانيه».

رد عليه العقل بلطف:

«لا داعي لانتظار الحكم لننتظر جلسة المحاكمة التي ستدلي ليلة فيها بشهادتها، وهي بعد أسبوعين»..

رغم عدم اقتناع قلب خالد بهذا الرأي، فقد شعر خالد بالراحة من هذه النتيجة، فعانق وسادته، واستسلم للنوم العميق حيث الأحلام الجميلة التي لا يرى فيها سوى ليلى..

استيقظ خالد كعادته في الصباح الباكر، وكان أول شيء يفعله دائمًا

هو أن يسأل نفسه:

«ترى ماذا ستفعل ليلة بنا هذا اليوم ؟!... آه ليلة تلك الشخصية التي اقتحمت حياتي كالبركان الذي انفجر ليغير معالم الحياة كلها يقضي على أماكن، ويوجد أماكن أخرى... يظهر خبايا كانت مدفونة منذ ملايين السنين، وهكذا البركان يشكل الحياة بصورة مختلفة مثل ليلة بركان حياتي الجميل الذي أخرج لي كل الكنوز المدفونة....

ماذا يا ترى ستفعل بي هذا اليوم لأكن مستعدًا لأي شيء تفعله فمن المؤكد أن أي شيء تفعله يسعدني حتى لو غضبت، وحدثتني بحدة، فلا يمكن أن أخدع نفسي إنني أعشق حدتها معي، وكم وددت لو طوقتها بذراعي، وهي تثور شاهرة سيف الحق أمام أي خطأ... آه سيف الحق كم أخشى عليك يا ليلة من حمله... ماذا سيفعل المتربصون بك؟»

كانت مخاوف خالد صادقة إلى حد كبير، فمع اقتراب موعد المحاكمة انفلتت أعصاب أصحاب القضية، وكانوا على استعداد لفعل أي شيء، وكل شيء للتخلص من ليلى...حقًا هي تعيش داخل قلعة حصينة يحرسها عاشق متيم مستعد أن يدمر الكون كله من أجل حبيبته، لكن لا بأس ليشرب العاشق من نفس الكأس الذي يجب أن تتجرعه حبيبته.

بدأت خيوط العنكبوت تنسج حول القرية الهادئة علهم يجدوا فيها الواشي أو الفاسد الذي يمكن أن ينفذوا منه إلى القرية.

فالفاسدون ما أكثرهم !! لكن للأسف فات أصحاب القضية أن خالد عمدة ابن عمدة حفيد عمدة، إلى الجد السابع كما يطلقون عليه، وربما لو بحثنا عن أسلافه الأوليين لوجدنا منهم من حكموا تلك القرية، فكان خالد

على علم بكل ما يحاك في الخفاء...

لم ينتظر خالد حتى يتوغل أصحاب القضية داخل قريته، فقد تصرف سريعًا، وسد كل الثغرات التي يمكن أن ينفذوا منها إلى القرية... بقي بعد ذلك المهمة الأصعب، وهي كيفية إقناع ليلى بأن تتوخى الحذر.

دعا خالد ليلى للسير معه في الحديقة، وحدثها عن كل ما دار في جلسة الصلح، ورسالة التهديد التي بعثها أصحاب القضية له، وما وصل إليه من أخبار بشأن ما يفعلونه... كان الجو فيه نسمة باردة، والليل يخيم على المكان، فشعرت ليلى برجفة تسري في جسدها، ودون تفكير، وجدت يدها الباردة تختبئ في يد خالد، نظرت إليه بعينين تملؤهما الحيرة، وسألته بصوت يرتجف:

-والعمل ؟

رد عليها خالد بصوت متزن ..

-عليك التزام الحذر، والباقي اتركيه لي.

كانت نظرات ليلى كلها خوف، وتحدثت بصوت يملأه الشك.

-أنا مش عارفة ياترى إللى عملته ده كان صح، ولا غلط... طب لو فعلًا ولعوا البلد، وعملوا فتنة، برضة إللي عملته يبقي صح ؟!

نظر خالد لها مؤيدًا إياها ..

-فارسة الحق كل أفعالها صواب...

أعادت كلمات خالد الثقة إليها، فاستجمعت شجاعتها، وتركت يد خالد، وسارت رافعة الرأس، وهي عاقدة العزم على استكمال طريقها.

ساورت خالد الشكوك مما فعلته ليلى، وملأت رأسه وساوس

الشياطين.

«ها هي ليلة تتعامل مع يدي، وكأنها محطة انتظار تستجمع فيها شجاعتها، لكن ما إن تعود إلى طبيعتها حتى تتركها لتسير وحدها، ولا تنظر لمن تركته خلفها... آه يا ليلة، وألف آه..»

وعلى نفس طريق خالد سارت ليلى ظلت طوال الليل تتقلب في فراشها، وهي تحلل ما كان من أمر خالد.

«حقًا لقد فعل من أجلي الكثير، ويخاف علي أكثر من نفسه، لكنه لا يحبني...هو ابن عمي العمدة الذي يحافظ على ابنة عمه فحسب... لكن نظراته...لهفته... لا... لا كل هذا وهم... يكفي ما فعله اليوم لو كان يحبني لكان تمسك بيدي بين يديه، لكنه سرعان ما تركها، وكأن الأمر لا يعنيه، وأنا... أنا من تفرض نفسها عليه طفلة هلعة تطلب المساعدة، فيمد لها خالد يديه... شكرًا لا أريد شيئًا، ولن أتوخى الحذر... لتتعب يا خالد، ويبلغ بك التعب أقصى مدى، ألست ابنة عمك التي تعيش في حمايتك، فلتتولى أمر حمايتي، وأنا سأفعل كل ما يحلو لي من أفعال متهورة»

وكأن الأقدار قد استجابت لأحلامها الصبيانية، فساقت لها فرصة ذهبية للتهور، فقد كانت ليلى تتابع أحوال الحيوانات في أرض العائلة، وفجأة رأت الخفير المرافق لها يجري عليها، وهو هلع ليخبرها باندفاع ثور هائج وسط الأراضي المجاورة لهم، وعدم استطاعة السيطرة عليه...

أسرعت ليلى بإحضار أدواتها، وأخذت معها مسدس التخدير الذي كان قد أحضره خالد لها مع الأدوات الطبية، وكم سخرت يومها من ذلك، لكن ها هو خالد كان محق فيما فعل.... ركبت ليلى فوق ظهر أحد

الخيول، وجرت نحو الأرض المجاورة... أطلقت ليلى مسدس التخدير صوب الثور، وبعد قليل استقرت الأحوال وسط ذهول الحاضرين، وإعجابهم بهذه الفتاة، وتصرفاتها التي لم، ولن يعتادوا عليها.

كانت ليلى تتفحص الثور المخدر، وألتف حولها أفراد العائلة صاحبة الأرض... كان الجميع يسأل عن هذه الفتاة العجيبة التي هبطت عليهم من السماء... كانوا قد سمعوا عنها من قبل، لكن ما فعلته فاق بمراحل كل ما سمعوه... ما إن وصل الخفير المرافق لليلى حتى تولى هو الإجابة عن كل ما يشغل ذهن الجميع، وكأنه المتحدث الرسمي باسم ليلى.

بعد أن أتمت ليلى معالجة الثور أعطت تعليماتها للكلاف، ثم شرعت لتغادر المكان، لكن كبير العائلة، وأولاده أصروا على بقائها ..

-على الأقل نشكرك، ونعمل معاك واجب الضيافة.

-شكرًا يا حاج أنا ورايا شغل كتير..

وهمت بتركهما، لكن جمال الابن الأكبر أصر على مرافقتها حتى تصل إلى أرضهم، ركب جمال حصانه، وعاد مع ليلى التي كانت تركب فرسها...

كانت الأخبار قد طارت إلى خالد، فتملكه الفزع على ليلى، لكن قبل أن يغادر المنزل شاهدها عائدة، ومعها جمال، وفي لحظة تحول فزعه إلى براكين من الغضب، وأسرع نحو ليلى، وجمال،والنيران المنطلقة من عينيه كافية لإحراق جمال، وعائلته، وأرضهم كلها.

ترجلت ليلى، وتبعها جمال الذي أقبل على خالد لتحيته، وشكره على ما فعلته الدكتورة، لكن خالد نظر له بحدة، وكأنه يأمره بالمغادرة...

أربكت نظرات خالد جمال، فأسرع بترك المكان.

سارت ليلى في اتجاه المنزل، فتبعها خالد، وأمسك بيدها بقوة ليستوقفها، فزعت ليلى مما فعله لكنه لم يمهلها، وانفجر غاضبًا..

-إنت فاكرة نفسك في أمريكا عشان تعملي عملتك السودة دي ؟!

لم تتمالك ليلى نفسها، وصاحت فيه:

-إنت إزاي تكلمني كده، وبعدين سيب إيدي، إنت فاكر نفسك مين عشان تعنفني بالقوة دي لم يترك خالد يدها بل تمادى في تعنيفه لها .

-إنت إللي فاكرة نفسك مين راكبة حصان، وراجعة مع راجل غريب إنت فين؟!

واصلت ليلى صياحها :

-و لا كلمة... أنا كنت بأنقذ الناس من تور هايج لكن واضح إنك أسوأ منه.

أطلقت عينا خالد آلاف من الأعيرة النارية التي كادت أن تفتك بليلى، لكن ليلى ظلت تنظر له في تحد، وهي تصيح بأن يترك يدها، ويدعها تدلف إلى البيت... جاءت الأم على صياح ليلى، فأنقذتها من قبضة خالد، وأدخلتها البيت.

تصاعدت حدة الغضب، والهياج عند خالد، فارتاع كل من في المنزل، وصاح خالد في الجميع مصدرًا أوامره.

-مافيش واحدة تخرج من البيت من غير إذني، ومفيش شغل برة أرضنا...

قاطعته ليلي، وهي تصيح

-إحنا مش عبيد عندك، وإنت مش واصي علينا الكل حر، وبعدين أنا إللي خرجت، ورحت أرض الجيران، فما تخدش الباقي بذنبي... وتعالى أولًا وقولي إيه الغلط إللي عملته، وإيه الجريمة إللي عملتها... ما أنا طول النهار بعالج الحيوانات، وتور هاج أسيبه يدمر الدنيا..

لم يستطع خالد أن يرد على كلام ليلى، ومنطقها العقلي، فهل لمن تملكته الغيرة عقل يزن به الكلام، فخرجت الكلمات ثائرة من فمه..

-لا تسيبه إزاي لكن تعالجيه وتجبيلي راجل البيت... شوفي يا ليلة قسمًا عظمًا...

قاطعته ليلى بحدة، وتحد..

-ما تحلفش أبدًا على ليلى القاضي.

تركته ليلى، وبراكين الغضب تثور من كل أجزاء جسدها، والجميع لا يستطيعون التحرك.... الذهول تملكهم من فرط حدة خالد مع ليلى، وتحد ليلى له... أيعقل ما حدث بينهما ؟! ومتى التقت الغيرة، والعقل معا..

(١٦)

ظلت ليلى حبيسة غرفتها طوال اليوم، ولم تتناول أي طعام، وكان هذا هو حال خالد هو الآخر الذي ترك مائدة الطعام غاضبًا .

رغم حالة القلق، والتوتر التي سيطرت على البيت، وأزعجت أخوات خالد، فقد أسعدت هذه الحالة الجدة، والأم أي سعادة، وحاولت كل واحدة منهما استغلالها بطريقتها الخاصة... في المساء بعد عودة سوسن، وهناء كل واحدة إلى منزلها أصرت عواطف على أن تخرج ليلى من حجرتها لكي تشاهد معها المسلسل التركي .

وأثناء المشاهدة خلطت الجدة كعادتها بين البطل، وخالد، لكنها وصفته بالغباء هذه المرة... كانت الجدة ترى خالد، وهو يقف قريبًا منهن يختلس النظرات إلى ليلى، فواصلت الجدة خلطها المتعمد.

-خالد ده واد حمار.

حاولت ليلى تنبيهها.

-البطل ما اسموش خالد يا وزة.

-آه ما أنا عارفة، لكن فعلًا هو حمار حبيبته جنبه، وهو حمار تعرفي هو بس لو فرد دراعاته حا يلاقيها في حضنه لكن نعمل إيه... غباوة.

شعر خالد أن الجدة تقصده بكلامها، فحاول الابتعاد، لكن الأم نادت

عليه فقد كانت قد أعدت بعض أطباق الطعام، ونادت على خالد ليأكل معهن، وهي تبتسم له في مكر.

-ما إنت طول اليوم كان نفسك مسدودة آه ما عرفش إيه إللي جرى لكم النهاردة إن كنت إنت، ولا ليلة ما حدش داق فيكم الزاد.

جلس خالد في مقابلة ليلى التي لم تظهر أي اهتمام به، وكأنه لا يجلس معهم، وظلت تتابع المسلسل في صمت، وهي تتناول الطعام... كان خالد يرميها بنظرات الاتهام التي تحاصرها من كل صوب .

«لماذا يا ليلة تشعلين نيران غيرتي، وتجعليني أفقد صوابي؟! لماذا؟!... أنت تعرفين جيدًا كم أحبك... آه قد لا تعرفين، لكن من المؤكد أنت تشعرين... لا يمكن أن تكوني متبلدة المشاعر لهذه الدرجة... انظري إلي.... لماذا تنظرين إلى هذا الممثل السخيف إنه يثير غيرتي هو الآخر.»

هب خالد واقفًا، وهو يصيح بعصبية ..

-والله أنا مش عارف عاجبكم إيه في المسلسل الممل ده، وبطله السخيف... عمومًا فيه برنامج إخباري مهم، ولو سمحتم عايز أشوفه.

صاح الجميع في توسل بألا يدير مؤشر القناة، ويمكنه أن يشاهد البرنامج في أي تلفزيون آخر، لكن ليلى ظلت صامتة، ثم تحدثت في هدوء..

-عندك في فيلا المعادي تلفزيون كبير روح هناك، وشوف كل البرامج إللي عايزها، لكن إحنا بنتابع المسلسل، ولو سمحت ده جزء رومانسي إنت ما لكش فيه.

أطلق خالد آلاف السهام النارية من عينه صوب ليلى، وتركهن، ورأسه

تكاد تنفجر من صرخات قلبه المتواصلة.

«آه الآن أصبحت تهتم بالرومانسية... بالأمس لم تكن حتى تفكر في الحب، والآن.. ماذا دار بينها، وبين جمال قلب تفكيرها لهذا الحد، وجعلها تعرف الحب ؟!»

نهر خالد قلبه بشدة ..

«يا لك من أبله حتى تظن أن ليلة لا تعرف الحب من قبل... ألا تشعر بها، وهي معي... كلامها... نظراتها... لماذا أنا أبله إلى هذه الدرجة حتى أغار من شخص تحدث مع ليلة مرة واحدة، لا لن أخدع نفسي أن قلبي معه كل الحق... لقد كان شكل جمال واضحًا، ولا يحتاج لأي تفسير لقد أعجب بها، وكيف لا يعجب ؟!... فتاة جريئة... متعلمة... غنية... ابنة أكبر العائلات في المنطقة، فلماذا لا تكون محط إعجاب الجميع.... خاصة عائلة جمال التي تهتم بتربية الحيوانات، فزواج ابنها بدكتورة بيطرية سيكون صفقة رابحة، فما بالك لو كانت هذه الدكتورة هي ليلة القاضي...

قسمًا بالله العظيم الشنق قليل عليه لو فكر في ذلك.»

لم تكن مخاوف خالد لا أساس لها من الصحة، فبالفعل أثارت ليلى اهتمام جمال، بل شغلت تفكيره، وصارح والده بذلك... وكما لاقت هذه الفكرة استحسان الوالد، فقد أثارت مخاوفه، وحدث ابنه عنها صراحة..

-بس يعني مش ابن عمها أولى بيها..

أثار كلام والد جمال حفيظة ابنه، ورد عليه بغل، وكمد..

-هو خالد كده أولى بكل حاجة... يعني لو كان عايزها ليه ما

اتجوزهاش لحد دلوقتي، هو فيه حد منعه..

رغم اقتناع الأب بمنطق ابنه، فقد فضل أن «يجسوا النبض» قبل أن يقدموا على أي شيء بشكل رسمي خاصة أن بنات القاهرة لهن تفكير خاص يختلف عما هو سائد في الصعيد.

نفذ جمال كلام والده، وبدأ محاولاته في معرفة كل أخبار ليلى مما أزعج خالد بشدة، وأكد له شكوكه حول جمال، وليلى، وهكذا أصبح خالد بين مطرقة الفاسدين الذين يتربصون بليلى، وبالقرية كلها، وسندان المعجبين بها، والذين يريدون التقرب منها.

ضاق خالد ذرعًا بما يدور حوله، وتملكه الغضب... ماذا هل تحول فجأة من عمدة القرية إلى «عمدة ليلة»، وللأسف، فليلى لا تساعده مطلقًا، بل تعمدت زيادة تهورها في تحد غريب لخالد لا يخلو من عناد الأطفال في كثير من الأحيان.

كان عنادها يسعد خالد رغم إنكاره لهذه السعادة، لكنه كان يراقبها، وهي تعدو في كل اتجاه ترعى الحيوانات، والطيور، وتتابع الأخبار من الفلاحين... تعطي لهم الإرشادات الصحية التي ينفذونها بكل حب، فليلى بوجهها البشوش قادرة على امتلاك قلوب الجميع، فلم يجد خالد حرجًا في إخبار كبار رجال القرية بالأخطار التي يحيكها المفسدون ضد قريتهم لموقف ليلى..

زاد كلام خالد من تقدير كبار رجال القرية لليلى، والتفوا حول خالد للإيقاع بأي فاسد يحاول تكدير سلام القرية الآمنة، وعلى الجانب الآخر ازداد إعجاب جمال بليلى، وحاول انتهاز الفرصة للتقرب منها ...

وجدت ليلى جمال أمامها، وكأنه هبط من السماء، أو انشقت الأرض، وظهر تحدث معها جمال مباشرة، لكن قبل أن يستطرد في الحديث هبط من السماء فارس يمتطي صهوة جواد أفزعت السهام النارية التي أطلقها من عينيه جمال، فاختفى في لمح البصر.

ترجل خالد، واتجه نحو ليلى، وجذبها من ذراعها لتسير بجواره، وقبل أن تعترض رن جرس هاتفها... كانت المتحدثة هي صديقتها ريم التي أخبرتها عما كتبته الصحف عن قضية الفساد، وعن ليلى شخصيًا، فآخر أوراق اللعب في القضية تمثلت في إثارة الغيوم حول ليلى حتى تفقد أعصابها، وتتوتر فيصبح من السهل تشويه صورتها، والتشكيك في شهادتها أو مساوماتها... فحرب الأعصاب كانت هي ورقتهم الأخيرة.

شعرت ليلى برجفة تسري في أوصالها، وسيطر الوجوم على ملامح وجهها، وهي تستمع لحديث ريم.... أحس خالد بما يقلقها، فترك ذراعها ليمسك يدها في حنان حتى تشعر بالأمان، وأرسلت عيناه آلاف الرسائل المطمأنة، فشعرت ليلى بالأمان، واستجمعت شجاعتها، وردت على صديقتها بحسم.

نعم أنا أميرة بنت أميرة، وهو إيه المشكلة إني أميرة، وأشهد بالحق... وخلاص همه فاكرين إن ده يهزني...خليهم يعملوا إللي يقدروا عليه...

أغلقت ليلى هاتفها لتستقر عيناها بين جفني خالد، لكنه شعر باقتراب أحد الأشخاص منهما، فترك يد ليلى مسرعًا، وسبقها في السير نحو البيت...تأكدت ليلى بأنها أصبحت حملًا ثقيلًا على خالد، فهي أصبحت مصدر تهديد له، وللقرية... لكن كان هناك جزء خفي في قلبها ينفي كل

ظنونها، ويفسر تصرفات خالد، وتوتره بأن جمال هو السبب فيها.

ليكن ما يكون، فقد كان كل ما يهم ليلى هو معرفة ما كتبته الصحف عنها، وعن والديها، وعبثًا ما حاول خالد حجب المعلومات عنها أو إخفاء الصحف عنها، فقد أصرت على معرفة كل ما يثار من حولها.

اصطحبها خالد إلى حجرة المكتب، وأعطاها كل الصحف التي تحدثت عنها، وعن والديها قرأت ليلى ما كتبته الصحف، ورأت صورة والدتها منشورة، فعادت إلى مخيلتها الصورة التي رسمتها للحادث الذي راحت والدتها ضحية له..

انفجرت ليلى في بكاء حار، وكأن الحادث قد وقع اليوم... هلع خالد من بكاء ليلى، فضمها جدار قلبه، وأسند رأسها على صدره، وحدثها بصوت خافت لا يخلو من الهلع:

-قسمًا عظمًا يا ليلة أولع في كل إللي مضايقك بالجاز، لكن ولا دمعة تنزل من عينيك.

ظلت ليلى تبكي حتى بللت دموعها صدر جلباب خالد، فأحس، وكأن دموعها لهيبًا يكوي قلبه، فانتقلت الدموع إلى مقلتيه حاول خالد أن يهون الأمر على ليلى، لكنه لم يستطع سوى أن يقبلها من رأسها، ثم حدثها، وصوته يختنق بالدموع :

-ورحمة أبوكي ما تبكي إلا البكا يا ليلة...

انتبهت ليلى لكلامه، فرفعت رأسها تنظر إليه، لكنه ظل يطوقها بذراعيه، وهو ينظر إليها حاولت ليلى محاربة دموعها بالابتسام..

-أنا بليت لك صدرك.

-رد عليها خالد، وهو يخفي دموعه وسط ابتساماته..

-فداكي.... أنا كلي فداكي....

شعرت ليلى بالطمأنينة، وجففت دموعها... حاولت ليلى الابتعاد عن خالد، لكن ضلوعه التي احتوتها أبت... شعر خالد بالنيران تشتعل في أوصاله، وليلى تخرج من بين ذراعيه لكن ظلت عيناه تعانقاها، فمهما ابتعدت ليلى ستظل دائمًا في أحضان قلبه يطوقها بضلوعه .

(١٧)

أحاط الحزن بليلى، وتذكرت كل ما مر بها من ذكريات أليمة بداية بمرض والدها، ووفاته وها هي تواجه موت والدتها مرة ثانية.... شعر كل من في الدار بحال ليلى، وحاولت كل نساء البيت التخفيف عنها حتى سوسن نحت غيرتها جانبًا، وتذكرت فقط عمها، وكيف كان يحنو عليها، وهي طفلة صغيرة، وعليها أن ترد الجميل لابنته.

شارك الأطفال النساء في التخفيف عن ليلى التي حاولت هي الأخرى الخروج من شرنقة الحزن، لكن دون جدوى.

أسرعت الأم إلى خالد لتحدثه في أمر ليلى.

-خالد إنت إفتريت على البنت، وهي في محنة من ظلمك لها....

لم يستطع خالد الدفاع عن نفسه، فقد كانت عواطف واثقة من أن خلاف خالد مع ليلى زاد من حدة تأثرها بما نشرته الصحف عنها، فلو كان خالد بجوارها ما تأثرت بمثل هذه الصورة.

-طبعًا البنت لاقية خبط من كل حتة... حرام عليك دي وصية عمك إللي كنت على طول بتكلمنا عنها.

أطرق خالد رأسه، وذهب إلى ليلى التي وجد الحزن، وقد أبدلها، فصاح فيها وسط دهشة الجميع الذين ثاروا عليه، لكنه لم يلتفت لأحد.

-يا سلام دي ليلة إللي أنا عارفها عشان شوية كلام فارغ مكتوب في

الجرايد تعملي كده، والله يا ليلة إللي يشوفك دلوقتي يمكن يصدق إنك بنت ضعيفة، ومؤدبة.

نظرت له ليلى بغضب، ولم ترد عليه، وقبل أن تتزايد الثورة ضده لحدته مع ليلى حضر الخفير، ومعه علبتان من الحلوى... واحدة صغيرة، والأخرى كبيرة، طلب خالد من سوزان أن تأخذ العلبة الكبيرة إلى المطبخ لتعد أطباق حلوى للجميع.

-لكن الزعلانين مالهمش نايب..

لم تلتفت ليلى إليه، وهو يجلس بجوارها حاملًا علبة الحلوى الصغيرة، وفتحها أمامها لتجد حلوى الهريسة... أقترب منها هامسًا:

-دي زي إللي عمي كان بيجبها لك... صدقيني العصا السحرية هي إللي جابتها...

أخذ خالد يطعم ليلى بيده... تبدل حال ليلى تمامًا، وعلت الابتسامات وجهها، واختفى الألم من وجهها، وهزت رأسها، وهي تضحك

-آه... أه هي الهريسة... هي.. إنت جميل قوي..

واصل خالد إطعام ليلى، وحدثها باسما..

-عشان تعرفي مين إللي كان بيجيب لك الهريسة.

لم يفهم أحد شيئًا من كلام خالد وليلى... وكم كانت نساء الدار مندهشات مما يفعله خالد مع ليلى، لكن عواطف، وعزيزة كادتا أن تزغرد كل منهما فرحًا مما تراه، لاحظت الأم أن الجميع يتناولن الحلوى عدا خالد، فتحدثت عواطف إلى ليلى.

-الدور عليكي يا ليلة أكلي ابن عمك...

رغم الخجل الذي تملك ليلى فقد تشجعت، وقدمت قطعة حلوى لخالد الذي وجدها فرصة سانحة لمداعبتها، وتظاهر بأنه سيقضم أصبعها.

امتلأ المكان بضحكات الجميع، لكن الوجوم كان من حظ سوسن التي حاولت إخفاءه، لكنها كادت أن تختنق من الدموع التي جسمت على صدرها فادعت التعب، وودعت الجميع لتعود إلى منزلها مسرعة، وانفجرت في البكاء غيظًا، وكمدًا مما رأته... أهكذا أمام الجميع تدليل، ومحبة يخرج نورها من العيون، فيزيل كل الظلام إلا ظلمات الحقد التي تسعى دائمًا لخنق نبضات القلوب العاشقة.

ظلت سوسن تتقلب على جمر نيران الغيرة حتى حضر زوجها في المساء، فلم تر في عينيه سوى الظلام...

لم تجد سوسن غير أحضان الخالة حسنات لتفرغ حقدها على ليلى، وكم تزايد حدته عندما علمتا بسؤال جمال عن ليلى... أهكذا هي دائمًا محط إعجاب كل الرجال... أليست ابنة «الخوجاية» فمن الطبيعي أن تلفت نظر كل الرجال، فكرت سوسن في الخلاص منها بالسعي لإتمام زواجها من جمال، لكن سرعان ما تراجعت، فبالرغم من أن زواج ليلى هو حل مثالي للتخلص منها، لكن كيف تتزوج مثل هذه الزيجة... أدائمًا هي تحظى بمن يحبها، ومستعد أن يفعل أي شيء من أجلها...

ركزت سوسن، وحسنات على إبعاد جمال عن ليلى، فاستغلت كل واحدة منهما صداقتها لنساء القرية من علية القوم لتخويف عائلة جمال من الارتباط بليلى... كان حديثهما ظاهره الحب، والخوف على ليلى، لكن

في حقيقة الأمر كان يحمل حديثهما إظهار لوجه ليلى المتمردة، ورغم أنهما لم تكذبا فيما روجتا، فقد كان لحديثهما أكبر الأثر في تخوف والد جمال من ارتباط ابنه بها، وقال له صراحةً :

-دي يا ابني واحدة مش عادية، وعايزة واحد بيعشقها عشان يقدر يتحملها..

رد عليه جمال باندفاع:

-ما ده إللي عاجبني فيها... إنها بنت غير عادية... ممكن أتباهى بها... بنت القاضي في بيتنا، وقتها ممكن أمشي في أرض القاضي، وأقول ده أرضي وما حدش يقدر يقولي تلت التلاتة كام...

لم يعجب الوالد بحديث ابنه، كما إن قصص جرأة ليلى، وما رآه هو بنفسه فضلًا عن التهديدات التي تحيط بها كل هذا جعل الوالد يعارض أي تفكير في التقدم لطلب يدها، وطلب من ابنه أن ينتظر على الأقل حتى تنتهي القضية، وعندما عارضه جمال صاح فيه غاضبًا :

-إحنا عايزين عروسة مش مصيبة تفتح علينا كل أبواب جهنم.

لكن جمال لم يقتنع بأوامر والده، وأصر على المضي في طريقه، وقد وجد في أن حبيبته ذات أصل أجنبي فرصة للتقرب منها مباشرة، وبأسلوب أقرب إلى ما يراه في المسلسلات الأجنبية.

تمادي جمال في سعيه للإلمام بكل التفاصيل الخاصة بليلى، ومعرفة أكثر الأشياء التي تحبها... وصلت الأخبار إلى خالد، فتأكدت مخاوفه بشأن جمال، ووجد نفسه وجهًا لوجه أمام حقيقة مرة كم حاول الفرار من مجرد التفكير فيها...

ليلى الفتاة الجميلة لا يمكن ألا يسعى الكثيرون لنيل رضاها، وقد يفاجئ بمن يدق بابه يطلب يدها، وقتها ماذا سيفعل ؟!... هل يرتكب مذبحة كبرى، ويتخلص من كل رجال المنطقة ؟!....

تملك الخوف من خالد، وتقاذفته الأفكار السوداء..

«لكن هناك القضية... وما المانع، فليلة ليست في حماية أحد حتى يجد حرجًا في التقدم لخطبتها، بل على العكس وقتها سيظهر في صورة الفارس الشهم الذي يضحي بنفسه من أجل من يحب، ويقف معها في أحلك لحظات حياتها، وهو الحامي لها.»

أدخل هذا التفكير الروعة في قلب خالد، فظل يجوب حجرته يضرب بقدمه كل ما يراه أمامه، وكأنه يوجه لكمات لجمال الذي أوقعه في تلك الدائرة، وظل يسأل نفسه:

«أبعد كل ما فعلته من أجل ليلة ممكن أن يأتي شخص مثل جمال ليأخذ الكعكة كلها، ويصبح هو الفارس الذي أتى من وراء الغيوم لينقذ الأميرة من بطش المفسدين... لا..لا يمكن أن أسمح بذلك، لكن كيف أنه لم يعلن عن أي شيء بصورة رسمية... هل أذهب إليه، وأوسعه ضربًا حتى لا يفكر في الاقتراب من ليلة... آه ليلة أيمكن أن تشعر بشخص آخر غيري... أنا... أنا ؟!... أهي حقًا تشعر بي أم تراها تعتبرني ابن عمها الشهم أو المستبد الذي اضطرت لقضاء بعض الأيام في بلدته ؟!... آه يا ليلة لكم أتعبني حبك...آه... لماذا أحتار... لأسرع إليها، وأبوح لها بكل ما ينبض قلبي به من حب لها، وماذا لو صرخت في وجهي رافضة قلبي، وقتها ستترك الدار لتخرج للوحوش الضارية، أو يظهر الفارس المزيف

ليسرق قلبها... آه ماذا أفعل ؟»

وجد خالد نفسه يصرخ صائحًا ينادي على الخفير... جاء الخفير مسرعًا يخشى من نذير السوء الذي يشي به صياح خالد.... واصل خالد صياحه، وهو يلقي على الخفير أوامر عادية جدًا... استمر صياح خالد على كل شيء، فقد كان يخرج ما بداخله من غضب في صورة صرخات حيرت الجميع...

كانت ليلى أكثر الحائرين، وبلغت حيرتها في أمره أشدها، وظلت تسأل نفسها :

«لماذا يغضب خالد بمثل هذه الصورة ؟! أكل هذا بسبب تصاعد حدة الحرب ضدي من المفسدين ؟... لا يا ليلى لا تظلميه... لقد كان حنونًا معي، لكن ماذا حدث ؟! لقد تحول في أقل من يومين إلى بركان ثائر، وأصبح لا يطيق النظر إلي... آه يا قلبي ماذا نفعل؟ ما هذا المستبد الذي فررت مني لتسكن في حنايا قلبه، ليكن ما يكون حتى ولو اضطررت لأعيش بدون قلب أفضل من الخضوع لهذا المستبد المتقلب.... لا إنه ليس متقلبًا... لقد كان حنونًا، لكن عندما تضاربت المصالح ظهر الوجه الآخر، فمن يتحمل شهادة الحق ؟!»

حاولت ليلى إقناع نفسها بهذا التفسير، لكنها سرعان ما ارتسمت أمامها صورته، وهو يحنو عليها، وهي تبكي بين أحضانه عندما قرأت ما كتبته الصحف... احتارت ليلى في أمر خالد، وأتعبها التفكير، فما إن عم نور الصباح المكان حتى أسرعت للعمل حتى تتمكن من الخروج من دائرة الحيرة الجهنمية.

غرقت ليلى في بحار العمل، وعندما اشتد بها التعب جلست على شاطئ الترعة، وخلعت حذاءها... دعت ليلى الخفير المصاحب لها للجلوس بجوارها، وكم كانت سعادته، وهو يجلس بجوار الدكتورة، وهي تحدثه في أمور الرعاية البيطرية..

-يا سبحان الله...الإنسان يفتري على المخلوقات الضعيفة، ويهملها، وبسرعة تتحول إلى بؤر شرسة تدمر حياته كلها...

-سبحان الله يا دكتورة قصر نظر بعيد عن جنابك.

قدم لها الخفير بعض من البلح الذي كان معه، وابتسم لها في أدب..

-والله دي مغسولة.

تناولت ليلى منه البلح، وأكلته في سعادة، وكأنها تعيش مغامرة، أو في رحلة سفاري... في تلك اللحظة وجدت جمال، وقد جلس بجوارها دون استئذان، وأخذ ينظر لها نظرات لها معانٍ ساذجة معروفة، ومثيرة للاشمئزاز، وتحدث بنفس الأسلوب.

-أنا مش عارف أنا جيت هنا إزاي لكن الرجل تدب ما طرح ما تحب نعمل إيه بقى.

نظرت له ليلى بغضب، وأشارت للخفير الذي هب واقفًا، واتجه نحو جمال، واصل جمال حديثه السمج..

-أنا عارف إنك في ظروف صعبة كان الله في عونك، لكن أنا حا أقف جنبك، وأحميك لحد ما الشدة دي تنتهي... إنت عارفة معزتك عندي..

نظرت له ليلى بدهشة، وسألته بحدة :

-تحميني من إيه ؟!

-خالد قال لنا على كل حاجة، وهو طلب المساعدة في حمايتك، وأنا طبعًا...

قاطعته ليلى بحدة ..

-إنت يتتكلم عن إيه ؟... وإنتم مين ؟

-على القضية، وإحنا الناس إللي بتحبك، ونفسها تفضل جنبك..

ازدادت ليلى حنقًا من طريقة جمال في الكلام، وأسلوبه السمج، وزاد الأمر سوء أنه حاول الاقتراب منها ليمسك يدها، فما كان من ليلى إلا أنها أمسكت بحذائها لتهوي به على رأسه، وكان الخفير في تلك الأثناء قد أمسك بذراعي جمال، وشل حركته لتتمكن ليلى من ضربه دون أي مقاومة... كانت ليلى تضربه، وهي تصيح:

-إحمي نفسك إنت الأول...

هبت ليلى واقفة، والشرر يتطاير من عينيها، وأسرعت تعدو نحو البيت.

(١٨)

كانت ليلى تعدو نحو البيت، وكل براكين الغضب قد انفجرت بداخلها... دلفت إلى مكتب خالد، وهي تصيح :

-خالد إنت ماشي في البلد تحكي عني، وتستجدي حمايتي...

هب خالد واقفًا، والغضب يملأ وجهه،ووقف في مواجهتها، ورد صائحًا:

-فيه إيه... بتزعقي ليه ؟! إيه طريقة كلامك دي...اتكلمي بالراحة.

واصلت ليلى صياحها :

-آه...المشكلة في طريقة كلامي ما إنت الآمر الناهي، ومحدش من حقه أنه يكلمك، لكن شئوني الخاصة إنت ما لكش دعوة بها، مين إداك الحق عشان تتكلم عن حمايتي، وكمان تطلب من الناس تشاركك فيه... ليه هو احتلال ؟

أدهشت كلمات ليلى خالد، لكنه ظل يتحدث بحدة، وبصوت مرتفع جعل كل نساء الدار يتجمعن في المكتب يحاولن تهدئة الموقف.

-حماية إيه إللي بتتكلمي عنها ؟!

-جمال جارنا تحب أكمل، ولا إنت عارف الباقي...

أنطق الغل سوسن..

-ما هو عينه منك، وعايز يتجوزك...

كانت لكلمات سوسن وقع الصاعقة على ليلى، وخالد، فصمتا للحظات، وتبادلا النظرات الحادة، ثم انفجرت ليلى..

-كمان عايز يتجوزني، ويا ترى هو إللي اتقدم لوحده، ولا إنت إللي عرضت عليه إنه يتجوزني.

توجه خالد بكل حدته لسوسن..

-إيه التخاريف إللي بتقوليها دي جواز إيه ؟!...

لم تمهل ليلى خالد ليتحدث مع سوسن، وأمسكت بذراعه ليواجهها.

-كلمني أنا... إنت إزاي تتصرف كده تعمل القضية قصة، وحماية، ومش عارفة إيه تاني..

وكمان تتفق على جوازي... إنت فاكر نفسك مين ؟!

نظر لها خالد بحدة، وأوصاله كلها ترتجف من شدة الغضب... حاول خالد عبثًا السيطرة على مشاعره، لكن أمام حدة ليلى لم يستطع سوى الصراخ في وجهها، فقد كان يريد الفتك بها لأنها ظنت إنه يمكن أن يتقبل فكرة أن يتقدم أحد لخطبتها..

-جواز إيه إللي بتتكلمي عنه إنت إجننتي....

بادلته ليلي النظرات الحادة، وتركت ذراعه... صاحت الجدة..

-إيه إللي بيحصل... إنتم بتتخانقوا ليه ؟

كادت الدموع تختنق صوت ليلى، فتحدثت بصوت منخفض..

-خالد بيه يقولك، ولا الموضوع مش محتاج واضح إني بقيت عبء عليه، ومش عايزني في بيته، فدور على أي حد يشيل همي... ما أنا إيه

عاملة مصيبة، وعايزة حماية...

نظرت ليلى لخالد، واستدارت لترك الحجرة... لم يكن خالد بأفضل حال من ليلى، فكلماتها الجارحة أدمت قلبه، فأمسك بذراعها لتقف، وتحدثت بصوت خافت يخنقه الألم.

-بيت إيه ؟!، وحمل إيه ؟! إنت ليه بتظلميني ؟! ده بيت العيلة... العيلة يا ست ليلة... بيت جدنا القاضي إللي عمره ما اتقسم عشان يبقي بتاع حد.

اندهشت ليلى مما قاله خالد.

-لكن إنت قلت إن بابا صفي كل أملاكه.

ردت عليها الأم بإنكار.

-هو حد بيصفي نصيبه في بيت العيلة ؟!

أكمل خالد كلام والدته .

-أولًا سوسن هي إللي قالت إن عمي صفي أملاكه، وما حدش جاب سيرة البيت، وبعدين يا ليلة إحنا عيلة، ولنا بيت، ولا إنت ماتعرفيش العيلة...

تحجرت الدموع في مقلتي ليلى.

-حا أعرفها من فين ؟!... أنا عشت طول عمري أنا، وبابا لوحدنا... يمكن لو كانت ماما...

لم تستطع ليلى إكمال حديثها، وانفجرت باكية... لم يترك خالد ذراع ليلى، وظل واقفًا واجمًا أمام دموعها التي كانت كالخناجر في قلبه.... تدخلت عواطف، وأخذت ليلى، وأجلستها بجوارها على الأريكة التي

تجلس عليها الجدة، ودعت الجميع للهدوء.

كفكفت ليلى دموعها، وقدم لها خالد كوبًا من الماء.... جلس خالد في مقابلة ليلى، وتحدث بصوت خافت تملأه الدموع.

-والله العظيم ما كنش قصدي أضايقك... ليلة أنا آسف... لكن فيه حاجة غلط أنا قصدي إن ده بيتك، وإحنا عيلة واحدة.

ابتسمت عواطف، وضمتها إلى صدرها .

-هو أنا مش ماما، ولا إنت عايزة ترجعي في كلامك.

صاحت الجدة بحدة

-إيه المسخرة دي... ليلة فيه حاجة جامدة حصلت... فيه إيه ؟!، وبطلوا شغل الهبل، وقلة الأدب بتاعتك إنت، وخالد...

وقبل أن تحكي ليلى لهم عما حدث أقبل أحد الخفراء ليعلن للعمدة قدوم والد جمال، فخرجت الأخوات الثلاثة، والأم، وبقيت الجدة، وليلى التي تحولت إلى نمرة شرسة... دلف والد جمال إلى مكتب خالد، وعلى وجهه كل علامات الخزي من فعلة ابنه... استقبله خالد استقبالًا خال من الترحاب، وبادره بسؤاله عما إذا كان طلب من أحد حماية ليلى.

كان والد جمال مرتبكًا في حديثه لا يدري ماذا يقول... يقدم الاعتذار قبل أن يبدأ أي جملة... نظرت له ليلى بحدة، وحدثته بغضب..

-شوف يا حاج أنا حا أشهد بحق ربنا، وإللي مع ربنا مش محتاج حماية من حد، وأنا مش لقمة صايغة، ولا بنت ضعيفة يستعرض ابنك قوته، وهو بيكلمها.

تلعثم والد جمال في كلامه... لم تمهله الجدة، وتحدثت بحزم،

وحدة:

-دي أصول يا حاج، وبعدين إحنا ما عندناش بنات تطلع برة...

خرج الحاج مصطفى مسرعًا بعد أن قدم أكثر من مائة اعتذار... أوصله خالد إلى الخارج، وهو يحاول رسم صورة لما حدث، ونادى على الخفير المرافق لليلى... حضر الخفير، ومعه حذاء ليلى، ولأول مرة ينتبه خالد إلى أن ليلى حافية القدمين... هنا أقترب خالد من حقيقة ما حدث، وتغيرت ملامح وجهه كل التغيير، وغزته السعادة، وهو يستمع لليلى، وهي تأمر الخفير :

-إرمي الجزمة دي بقت ملوثة.

-ما أنا نضفتها بالمطهر.

لم يكن خالد يحتاج لأي مهارة ليجعل الخفير يحكي له كل ما حدث، وسأله:

-كان فيه ناس كتيرة ؟

-عدد لا بأس به...

-نعم ؟!!

-هي الدكتورة علمتنا كده من عشرة لعشرين حيوان يبقى عدد لا بأس به.

وضع خالد يده فوق فمه ليخفي ضحكاته الخفيفة، وأشار للخفير بالانصراف، ونظر لليلى ضاحكًا... شعرت ليلى بالخجل من نظرات خالد لها... لم تكن الجدة راضية عما حدث، فأنكرت تصرفات الجميع، وخرجت غاضبة.

ظل خالد واقفًا ينظر إلى ليلى، وهو يخفي ضحكاته... وقفت ليلى في مواجهته، وحاولت التحدث بتحدي لتخفي خجلها .

-يعني كنت حا أعمل إيه مع السمج ده.

-لا أبدًا ضربتي جمال، وبهديلتي أبوه، وأتخانقتي معايا.. مفيش مشكلة..

-آه عشان أنا ست، وأنتم رجالة..

-إيه ست إيه ؟!... هو فين الست دي ؟!

نظرت له ليلى بغضب، فأضحكته نظراتها الشرسة..

-الحاجة الوحيدة إللي مش فاهمها، ومش عارف لها سبب هي دموعك...

اخفض خالد من صوته..

-إنت مش عارفة إن دموعك هي الحاجة الوحيدة إللي ما قدرش أتحملها...

اكتسى وجه ليلى باللون الأحمر، فجرت مسرعة من أمام خالد... ملأت السعادة نفس خالد، واختفى الغضب من ملامح وجهه التي لونها الفرح بأبهى ألوان السعادة... وانطلق قلبه يردد كل أغاني الحب، وخالد يسأله:

«آه يا ليلة... آه... حقًا من يستطيع أن يحمي الفارسة التي تشهر سيف الحق في وجه الفاسدين ؟!.... لابد أن يكون فارسًا مغوارًا على شاكلتها... ومن أقرب لها من ابن عمها»

كانت مهمة خالد بالغة الصعوبة، فعليه فرض حزامًا أمنيًا علي ليلى دون

أن تشعر به، وإلا فالعواقب وخيمة... اعتمد خالد على التقارير القادمة من الخفراء عن كل من يدخل القرية أو يخرج منها، وكذلك التقارير الواردة عن الفاسدين من أهل القرية، ومن لديهم نقاط ضعف يمكن استغلالها، وهكذا أحكم خالد سيطرته على البلد، وكان كل ما تبدأ مشكلة يسرع في حلها من جذورها حتى لا تشتعل الأمور، واستمر في سد جميع الثغرات التي قد ينفذ منها أي شخص للقرية، لكن مهما حاول، فالمحاولات المضادة تعمل بكل الطرق، ولا يهدأ أصحابها...

كان هناك حصار شديد حول القرية حولها إلى قلعة حصينة، لكن كان هناك بيت خالد نفسه يمكن النفاذ من خلاله، ولا يوجد أفضل من سيد زوج سوسن للقيام بتلك المهمة...

كانت غواية سيد من أسهل الأمور، فهو نفسه يسعى لأي فساد، لكن كان من الصعب إدخاله ضمن خطة التخلص من ليلى، فهذا الفاسد الجبان لا يؤتمن حتى على الشر..

كان دور سيد ينحصر في إدخال أحد القتلة المحترفين إلى القرية الحصينة... لم يكن سيد يعرف أي شيء عن تفاصيل الخطة أو حتى عن حقيقة دوره، فقد كانت غوايته تتمثل في أنه سيدخل أحد تجار المخدرات إلى القرية، ومعه مقدار كبير من الحشيش يكفي لسهرات كثيرة سيقضيها سيد مع رفاقه الذين تعرف عليهم في إحدى القرى المجاورة، فقد كان خالد رجل القانون قد قضى على كل أوكار الفساد في القرية، وهذا كان المنفذ لسيد ليساعد الرجل المزعوم ليدخل الحشيش إلى القرية، ثم يتم بعد ذلك الإعداد لسهرات «المزاج»

كانت صور هذه الليالي تداعب مخيلة سيد، ومع سحر دخان الحشيش المتصاعد في جلسات السوء تخيل سيد نفسه، وهو يخدع خالد، ويفعل كل ما يحلو له في حراسة خفراء خالد الأشداء، فبدأ في رسم خطة دخول الرجل إلى القرية...

كانت الخطة تتمثل في أن يدخل الرجل على أنه يحضر مبيدات إلى عزبة عائلة سيد، وفي بيت والده سيأخذ سيد جوال المبيدات الذي سيوجد به المخدرات المزعومة، وتم الاتفاق على تلك الخطة مع اختلاف بسيط لم يعلم سيد به، وهو تبديل المخدرات بسلاح آلي..وبمجرد أن يدخل القاتل إلى القرية سيكون من السهل عليه الاختباء، والتخلص بعد ذلك من ليلى التي عرفوا من سيد، وهو تحت تأثير المخدر كيف تتجول في القرية بحرية..

كان تنفيذ الخطة سريعًا، فلم يتبقى غير القليل على المحكمة..

رغم خوف سيد من تلك الخطة التي أعدها، فقد كان واقعًا تحت تأثير خيالاته حول الليالي الموعود بها، فوافق على سرعة التنفيذ...

في الصباح الباكر أسرع سيد إلى والده، وأخبره بأنه سيحضر له أحد الأصدقاء جوال مبيدات من نوع مميز لتجربته، ورغم عدم اقتناع والد سيد بكل ما يقوله أو يفعله ابنه، فقد تركه يفعل ما يريد عله يصدق هذه المرة...

واصل سيد تنفيذ خطته، وأخبر الجميع بأمر المبيدات حتى يسهلوا عملية دخول الرجل الغريب إلى أرضهم...

كانت ليلى وقتها مازالت غاضبة مما حدث بشأن موضوع جمال،

وازدادت غضبًا من سعادة خالد البالغة التي لم يستطيع إخفاءها، فخرجت مسرعة منذ الصباح الباكر يرافقها الخفير... لم يكن هناك عمل عاجل، لكنها كانت لديها رغبة قوية في البقاء خارج المنزل.

كانت تحاول الهروب من نظرات خالد لها... أهكذا هي كتاب مفتوح أمامه؟! هذا أمر واضح جدًا، فسعادته الغامرة تشي بكل ما بداخله... ها هو ينتصر... أجل هو ينتصر، وهو يشعر بنشوة الانتصار، لكن لماذا يشعر بهذه النشوة...ألا لأن ليلى قد أنهت أمر جمال؟!

لكن هل حقًا المشكلة كانت في جمال أم أن سكوت خالد، وتمسكه بعدم البوح بما في قلبه هو المشكلة الحقيقية؟!

فكم حير صمت خالد ليلى، وجعل الظنون تتقاذفها، فجلست على شاطئ الترعة تنظر إلى المياه، وتقذف فيها الحجارة الصغيرة، والتساؤلات تتصارع في رأسها :

«هل حقًا كان خالد يريد أن يتخلص مني ؟!...لكن كيف إنه هو من أجده دائمًا بجواري في كل مشكلة تواجهني، فلماذا أسيء الظن به وأنا.. أنا أحبه... أجل أحبه... لا.. لا يا قلبي كف عن هذا الهذيان... خالد بعيد عنا... فعد يا قلبي إليَّ، فخالد لا يحبني... لكن لماذا كل هذه السعادة التي غمرته بعد أن عرف موقفي من جمال، لكن أيعقل أن يسمح رجل لأحد بأن يتقدم لخطبة حبيبته، ما هذا أنا أهذي، فخالد لم يسمح لأحد بهذا أبدًا... آه ما الفرق لو كان يحبني كان تقدم لخطبتي... إنه لا يحبني... لا يحبني..»

شعرت ليلى بمرارة شديدة عندما وصلت إلى هذا الاستنتاج جعلتها

تشعر بالدوار الخفيف، فوضعت رأسها بين راحتيها... أحس الخفير بألم ليلى، فجلس بجوارها، وحاول أن يخفف عنها...

كانت ليلى بالنسبة للخفير حلم جميل، فقد عاش طوال حياته في كنف عائلتها، وأحبهم جميعًا، وكم سمع عن والدها، وعنها، فحلم بأن يراها، لكن الحقيقة كانت أجمل بكثير، فتمادى في أحلامه ليراها بجوار سيده ينعمان بالحب الذي يستحقه كل منهما.

كان الخفير يرى أن عليه دور في التقريب بين خالد، وليلى، وإزالة أي سوء تفاهم بينهما اندفع الخفير في الحديث.

-والله يا دكتورة الواد جمال ده كداب.

أفاقت ليلى من شرودها على صوت الخفير الجالس بجوارها .

-نعم ؟!

اعتذر الخفير عن جلوسه بجوار ليلى، وأراد القيام لكن ليلى أشارت له بألا يقف، وأن يواصل حديثه... شعر الخفير بأن مجهوده سيكلل بالنجاح، فواصل ذمه في جمال.

-والله الواد جمال كداب... كداب... أنا كنت مع جناب العمدة، وهو بيكلم والد جمال، وكبار البلد عن الخوف لا عيلة مسلمة تهيج على عيلة مسيحية، ولا مسيحي يأذي مسلم، وتبقى حكاية، ورواية... بس كده والله..

نظرت له ليلى ليستطرد..

-أه هو كده الموضوع... بس جمال عايز يعمل نفسه بطل... ده واد فلتان، وأي كلام ده خد الثانوية بالعافية أيام الغش الجماعي، وبرضه دخل

تجارة، وقعد فيها سنين...

ضحكت ليلى من كلامه، وفهمت قصده، فزاد الخفير من ذمه..

-تعرفي يا دكتورة جمال كان هو السبب في هياج التور...

ازدادت ضحكات ليلى، ووقفت تنظر في كل الاتجاهات بلا هدف تستنشق نسيم الصباح العليل... لاحظت ليلى حمارًا يحمل جوالًا ثقيلًا ينوء بحمله، فنظرت غاضبة للخفير الذي فهم قصدها، وأسرع ليوقف الرجل الذي كان يقود الحمار...

جرت ليلى وراء الخفير لتستوضح الأمر... كان الرجل مرتبكًا بعض الشيء، والخفير يوقفه، وأخبره مباشرة بأنه قادم ليحضر جوال مبيدات لعزبة سيد بيك..

لم تهتم ليلى بما يقوله الرجل، لكن كان كل همها منصبًا على الحمار المسكين، فصرخت في الرجل توبخه لأنه يسئ معاملة ذلك الحيوان الأبكم الضعيف، وهنا صاح الخفير.

-الحمار ده مش من جهتنا ده مش نضيف زي حميرنا يا دكتورة.

نظرت ليلى بأسى للحمار، ولاحظت بعض الجروح في جسده، فأمرت الخفير بأن يرفع الجوال عنه... أضطرب الرجل، وظهرت عليه علامات الارتباك التي أقلقت الخفير، فأوقفه يستفسر منه عن شخصيته، وماذا يحمل، والجهة التي سيذهب إليها، في حين أسرعت ليلى بإحضار ماء لتنظيف جروح الحمار...

كان الخفير يسأل الرجل من جهة، وليلى توبخه من الجهة الأخرى، فلم يتحمل الرجل الضغط من الجهتين، وأحس بالخطر، فحاول الهروب...

هنا أمسك الخفير به بقوة، لكن الرجل قاومه بعنف، فتدخل الحمار، ورفس الرجل بقوة، فطرحه أرضًا ليتمكن الخفير منه.

أسرعت ليلى بفك الجوال، وإعطاء الحبل للخفير ليقيد الرجل، ما أن انفتح الجوال حتى ارتعد الرجل فزعًا هنا أدرك الخفير أن الجوال يحتوي على شيء خطأ، فطلب من الدكتورة ليلى تفريغ الجوال..

كانت المفاجأة التي أذهلت الجميع عندما عثرت ليلى على سلاح ألي داخل الجوال... أمسكت ليلى بالسلاح، وجر الخفير الرجل إلى دار العمدة.

انتقل الخبر بسرعة البرق إلى العمدة، فعلم بما حدث قبل أن يصل الثلاثة إلى الدار، وكان اسم سيد مطروحًا بشدة، فمنذ اليوم السابق، وهو يتحدث عن جوال المبيدات، طلب خالد إحضار سيد على وجه السرعة، وبدأ التحقيق في الأمر...

انهار سيد تمامًا، واعترف بالقصة كاملة كما يعرفها هو، لكن الجوال لم يكن به مخدرات لقد كان به سلاح آلي، وهو ما لا يعرف سيد أي شيء عنه، ولا عن قصته، فبدأ سلسلة لا تنتهي من القسم بكل المقدسات، لكن عبثًا كانت محاولاته، فخالد كان لا يصدقه مهما قال، فالجريمة ثابتة عليه، وبقى أن ينتزع اعترافًا تفصيليًا من الرجل بكل شيء.

كان الغضب قد تمكن من خالد، وأصبح كالوحش يريد الفتك بالرجل، فقد كانت صورة ما يريدون فعله بليلى ترتسم أمامه فيزداد غضبًا، وشراسة.. وأشار إلى رجاله ليأخذوا الرجل، وهو سيتبعهم..

أحست ليلى بما سيفعله خالد، فانتفضت فزعة، وأسرعت تسأل خالد

عما ينوي فعله، فحدثها بحدة .

-ليلة ما لكيش صالح ده شغلي...

ردت ليلى غاضبة.

-يعني إيه ده مش شغلي...

ارتدى خالد قناع العمدة المستبد، وتحدث بحزم .

-ليلة خلاص ده كلب، وما لوش دية، ده كان عايز...

خانت الكلمات خالد أو بمعنى آخر لم يستطع نطقها، لكن ليلى لم تلتفت لما هو فيه، وواصلت حديثها الحاد ..

-ده اسمه انتهاك لحقوق الإنسان يا دكتور القانون....

-ليلة الراجل ده فكر يأذيكي يعني الحرق قليل عليه...

-خالد لو حصل للراجل ده حاجة أنا إللي حا أشهد ضدك...

تملك الغضب من خالد، وصاح فيها..

-ده تهديد ؟!

-لا ده حق.

انطلقت من عيني خالد آلاف السهام النارية، لكن قبل أن تصل إلى ليلى أشاح بوجهه حتى لا يصيبها أذى... وصرخ قلبه ..

«أهكذا يا ليلة أنا أتمزق فزعًا عليك، وأنت تبيعيني من أجل من حضر لقتلك ؟!»

شعرت ليلى بصرخات قلب خالد، فأمسكت ذراعه لينظر إليها، وحدثته بصوت هادئ حنون... أخمد كل نيران الغضب المشتعلة في صدره ..

-خالد إنت أبعد إنسان عن الظلم، والاندفاع... إنت خالد...

صمتت ليلى أمام نظرات خالد التي كانت تعانقها بقوة، تضمها إلى قلبه الملتاع... غار القلب من نظرات العين، فألح على صاحبه ليقترب من ليلى رويدًا... رويدًا... وليلى تستأنف حديثها الهادئ..

-خالد أنا ما أعرفش مين أغلى شخص عندك، لكن وحياة أغلى شخص عندك أقتدي بالأمام علي إللي حكم بالعدل في قاتله... وحياة أغلى شخص عندك...

كانت ليلى تحدثه، وعيناها تبعثان له آلاف الرسائل من الترجي التي لم يتحملها قلبه، فأستأذن عينا خالد لتطلق كل رسائل الحب لليلى، وخالد يهمس لها، وهو يقترب منها ..

-وحياة أغلى شخص عندي... وحياة ليلة...

آثرت شفتا خالد إن تؤكدا لشفتي ليلى على أنها أغلى شخص عنده، وغرق خالد في بحار عشق ليلى، وشدها بقوة للغوص في الأعماق معه... شعرت ليلى برجفة في كل أوصالها، وأنطلق قلبها يقفز فرحًا، فتملكها الخجل...واشتعلت وجنتيها بالنيران، فأسرعت بالفرار...

(١٩)

خرجت ليلى تعدو من مكتب خالد، وصعدت مباشرة إلى حجرتها، فقد كانت لا تريد أن يراها أحد....أحكمت ليلى إغلاق باب حجرتها، وجلست على السرير لا تعرف ما أصابها، فقد انتابتها مشاعر متداخلة متناقضة عنيفة...كانت تشعر بالخجل الشديد، فوضعت يدها على وجنتيها التي كانت نيران الخجل تنطلق منها...

ابتسمت ليلى خجلاً من الفرحة التي تملكتها، فها هي جميع مخاوفها لا محل لها، فأخذت تردد لقلبها .

«خالد يحبني... يحبني... هذا مؤكد... لهفته مؤكدة، ولم تكن مجرد وليدة لحظة انفعال...دقات قلبه لقد سمعتها تهتف بحبه لي... إنه يحبني... يحبني...»

استعرضت ليلى تفاصيل كل لقاء جمعها مع خالد منذ أن وطأت قدماها القرية... كانت السعادة تغزوها من كل صوب، وقلبها يرقص طربًا، وهي تتذكر كل ما فعله خالد معها.

«لكن ما فعله في أخر مرة مختلف... إنه لم يتمالك نفسه، وحطم كل القيود، وأعترف بأنني أغلى شخص عنده.»

تهلل وجه ليلى بالابتسامات التي تحولت إلى ضحكات خفيفة،

وتحدثت إلى نفسها بصوت مسموع:

« خالد يحبني... خالد يحبني...»

أخذت ليلى تجوب حجرتها تفكر في خالد، وهو يتقدم لخطبتها، فمن المؤكد أن هذه هي الخطوة التالية من المؤكد، لكن ما حير ليلى هو شكل الخطبة في هذه المنطقة... كيف تتم، وما هي حدود العلاقة بين الخطيبين، وغيرها من الأمور التي شغلت ذهن ليلى، وأنستها قصة المتربصين، وأمر القضية المحدد جلستها بعد غد...

لم تجد ليلى سوى سوزان لتزيل حيرتها، وتخبرها بكل عادات المنطقة، لكن قبل أن تغادر حجرتها جلست على أحد المقاعد لتلتقط أنفاسها، وتحاول أن تخفي فرحتها، وتقلل ممن حجم الابتسامات التي أضاءت وجهها، لكن هل كانت تستطيع أن تخفي الضوء المنطلق من عينيها ؟!

هبطت ليلى الدرج لتجد نساء الدار، وقد تجمعن حول سوسن التي كانت تبكي، وتنتحب، وتشكو حظها العاثر، ما أن رأت سوسن ليلى حتى أطلقت سيلًا من الاتهامات بأنها السبب في كل ما حدث، فمنذ أن حضرت إليهم، والمصائب تتلاحق عليهم، وصرخت في وجهها.

-إنت عايزة تخشي الجنة على قفانا روحي بلدكم، واشهدي بالحق، ولا الباطل إحنا ما لناش صالح.

نهرت الجدة سوسن بشدة، لكن سوسن استمرت في ضلالها..لم تلتفت ليلى لها، فقد كانت تحلق فوق السحاب من فرط السعادة، فلم يصل إلى مسامعها مهاترات سوسن، وأشارت إلى سوزان لتلق بها في

الحديقة.

أحست سوزان بالتغيير الواضح الذي طرأ على ليلى، وكم كانت مندهشة مما حدث لها، وأعربت عن ذلك صراحة.

-مش ممكن كل الكوارث دي، وإنت مبسوطة كده.

لم تستطع ليلى إخفاء ابتساماتها، ونظرت بعيون متلألئة تشي بكل الأخبار الجميلة... حاولت سوزان استدراج ليلى لتخبرها بما يحدث، لكن ليلى حولت مجرى الحديث إلى العديد من الموضوعات، أخيرًا وصلت إلى الموضوع الذي يشغل بالها..

-تعرفي يا سوزان أنا نفسي أحضر فرحك عشان ما بقاش زي سوسن ما بتقول وش كوارث...

-إيه يا ليلة هو إنت حا تخدي على كلام سوسن...

-طب إحكي لي أمتى، وإزاي عرفتي محمود خطيبك، وبالمناسبة إنتم بتتقابلوا فين، وإزاي.... أنا ما شفتهوش جه عندنا إلا كام مرة، وكان معظم الوقت قاعد مع خالد، هو إنتم بتتقابلوا عند الجامعة، ولا..

قاطعتها سوسن

-إيه ده كله... إحنا يا حبيبتي في قرية في المنيا يعني وسط الصعيد...

لم تفهم ليلى ما تقصده سوزان، واستفسرت عما تعنيه، فأوضحت لها سوزان كم القيود المفروضة عليها..

-تعرفي يا ليلة لو كنت أنا ومحمود مرتبطين من ورا أهلنا كنا على الأقل إتقابلنا في المنيا، وأنا رايحة الجامعة، لكن للأسف محمود جه، وخطبني، وابتدأت القيود ده حتى التليفون بكلمه، وخالد أو ماما واقفين

جنبي...

وجمت ليلى مما تسمعه، لكن سوزان لم تلاحظ وجومها، وواصلت شكواها .

-وطبعًا مش معقول أخليه يلاحظ إني بأخالف أهلي... كده يحتقرني... وبيني وبينك العيلة برضه حماية للبنت، وبتعمل لها قيمة...

شعرت ليلى بأنها سقطت من فوق السحاب الذي كانت تحلق عنده إلى الأرض الصلبة، فتهشمت، وتناثرت أجزاؤها في الهواء، وأصبح لا وجود لها... أهكذا هي في نظر خالد فتاة بلا عائلة لا يحترمها، ويلهو بمشاعرها... شيء طبيعي، فهي فعلًا لا أهل لها، وفضلًا عن هذا لو كان يريدها، فلماذا لم يتقدم لخطبتها، لماذا لم يلزم نفسه بكلمة حب يقولها صراحة... لماذا... لماذا؟؟!!

انطفأت كل ومضات النور في عيني ليلى، ورسم الوجوم لوحة كئيبة على وجهها، فتركت سوزان تعود للبيت، وأسرعت الخطى تعدو نحو شجرة البرتقال... ألا يمكن أن تكون سوزان مبالغة فيما تقوله ربما خالد يعاملها هكذا لأنها لا تزال صغيرة، وهو يخاف عليها... ربما ..

ظلت ليلى في حيرتها تسأل شجرة البرتقال، لكنها لم تجد غير الصمت الذي زاد من مخاوفها... كانت هناك يد حنونة تربت على كتفها، فالتفتت فزعة، وعلى وجهها كل علامات الخوف...

اندهش خالد من نظرات ليلى، لكنه فسرها بأن ما حدث مازال يخيفها، فحاول الاقتراب منها لتهدأ، لكنه وجدها تبتعد عنه نافرة منه... انقبض صدر خالد عندما شك في أن ليلى تنفر منه، لكن سرعان ما طرد هذا

الخاطر من رأسه، وفسر ما تفعله بأنها تخجل مما حدث، فنظر لها مبتسمًا، ثم علت وجهه الضحكات التي أثارت تساؤلات ليلى، فأجابها..

-الحاجة إللى بتضحك وضع جمال.

نظرت له ليلى مستنكرة ما يقوله..

-وجمال دخله إيه ؟!

رد خالد بسخرية

-مش كان عامل نفسه هو إللي حا يحميكي... أهو الحمار هو إللي رفس المجرم مش ده إللي حصل..

نظر خالد إلى ليلى متأملًا وجهها الذي كان يعلوه سحب مختلفة من الشك، والخوف، والغضب... حاولت عينا خالد الاستفسار عما يقلق ليلى، لكن عينيها لم تجب، وواصلت صدها لعيني خالد، وأخيرًا تحدثت بنبرات صوت بها قليل من العصبية

-الراجل كان قصده خير، وبعدين هو كان فاهم إنه كده بيتقرب مني... مش كان عايز يتجوزني.

رد خالد بعصبية..

-جواز في عينه.... واحد شاف واحدة من يومين، وعايز يتتجوزها... إزاي يعني.

ردت عليه ليلى بعصبية..

-هو فيه مدة محددة بعدها يقرر الواحد الجواز.

-يعني يا ليلة كام شهر أنا مش حا أقول سنة لكن مش من أول مرة

يمكن الواحد يقرر إذا كان بيحب فلانة، وعايز يتجوزها الموضوع مش خبط لزق كده... كمان ابن القرية إللي عاش طول عمره فيها له متطلبات في عروسته صعب جدا تكون في بنت المدينة، فلازم يفكر ألف مرة قبل الارتباط بها، ولا أنا غلطان ؟!

تركته ليلى دون أن تنطق بكلمة، فها هو يؤكد جميع مخاوفها... لا إنها ليست مخاوف إنها حقائق ثابتة... كتمت ليلى دموعها حتى وصلت إلى غرفتها، فأغلقت بابها، وهي في سباق مع دموعها التي انهمرت كالأمطار الرعدية تهز كيانها كله... ارتفع صوت بكائها الحار حتى خافت أن يسمعها أحد، فحاولت قدر المستطاع أن تخفف من حدته...

كانت تشعر بالمرارة تخنقها، فلم تستطع حتى «بلع ريقها»... ظلت تبكي، وتبكي، خناجر الاشمئزاز من نفسها تقطعها إربًا.. إربًا... وسياط التأنيب تلهب جسدها... لم يسلم قلبها من العذاب، فقد كان يكتوي هو الآخر بالنيران...

«ماذا فعلت بنفسي ؟!... لماذا انخدعت بهذه السهولة، واندفعت في مثل هذه العلاقة ؟!... لماذا يا قلبي فررت مني، واختبأت بين ضلوع خالد، وهو ينكرك، وينكر هذيانك، وكل شيء عنده بحساب؟!.... آه أنا لم أكمل المدة الكافية للإعجاب، وحتى إن أكملتها إنني بنت القاهرة لا يمكن أن أكون مناسبة لابن القرية، فماذا عن عمدتها ؟!

آه يا لني من فتاة ساذجة !!! كيف لي أن أفعل ما فعلته... ألم يتهمني من قبل بالاستهتار، وكم انتقد سلوكي، فكيف اندفعت معه ؟!... كان يراني فتاة مستهترة تسير، وشعرها «عار»، وتقود سيارتها... ابنة «الخواجاية»،

فلماذا... لماذا ؟!!

آه لا استطيع حتى تصور كيف كان يفكر، وأنا، وأنا بين أحضانه... لكن لماذا يلعب بمشاعري ؟! ماذا فعلت ؟! أنا في حمايته.. أجل هذه هي الحقيقة، ولن أكابر... أيمكن....أيمكن أن يكون خالد هكذا، ولم لا؟!... الكل فاسد، ويرتدي قناع الصالحين د/ محمد.... أصحاب الشركة الأجنبية... رؤسائي في العمل.... حتى الزملاء شهدوا بغير الحق... الجميع... الجميع، فلماذا لا يكون خالد مثلهم ارتدى قناع الحب، وهو ليس أكثر من عمدة مستبد أراد أن يلهو بمشاعر فتاة تتحداه دائمًا، فكسرها كلها بدلًا من أن يكسر رأسها كما يردد دائمًا.

آه لو كان أبي لا يزال على قيد الحياة... استغفر الله العظيم... أستغفرك ربي عن كل شيء حتى عن حبي لخالد... يا رب اغفر لي هذه المشاعر، ونجني منها..

(٢٠)

لم يشعر خالد بالسعادة كما شعر بها في هذا اليوم..كان لا يصدق ما حدث له... هل يمكن أن يشعر الإنسان بكل هذه المشاعر من فرح، وحب، وأمل، وتفاؤل، و...و...وآلف و..

حاول خالد قدر المستطاع أن يخفي مشاعره، لكن من يستطيع أن يحجب نور الصباح... لقد شعر الجميع بالتغير الكبير الذي حدث له...

نفذ خالد ما طلبته ليلى، ولم يستخدم العنف مع المتهم، وعاد لطبيعته كرجل قانون قادر على نزع الاعتراف من أي مجرم، فاعترف له المتهم بكل التفاصيل، وكانت المفاجأة أنه قد كلف بقتل سيد هو الآخر...

وهكذا أنهى خالد القضية حتى قبل أن تأتي جهات التحقيق، وبقيت سوسن، وعويلها، واتهاماتها التي لا تنتهي لليلى... شعر خالد بغضب مما تقوله سوسن، وفكر في أن يواجهها بالحقائق كاملة، ويقارعها الحجة بالحجة، لكن وجدها وسيلة غير مناسبة أمام حقد سوسن الذي لا ينتهي على ليلى.

خاف خالد على ليلى من حقد سوسن، فعقد العزم على أن يستمر في استخدام مهارات المحقق الذي يوقع بين المتهم، والموالين له ليظهر الحقيقة، فتحدث بصوت مرتفع مع الخفير عن النساء اللائي كن

سيحضرن جلسات المخدرات..

هرعت سوسن تستوضح الأمر..

-إيه يا سوسن هو فيه حشيش من غير نسوان.

صرخت سوسن، ووهي تضرب صدرها بكفها ..

-نسوان إيه يا خويا مش كانوا حا يقتلوا ليلة.

-يعني سيد له صالح بليلة، وقتلها... الموضوع إللي يخصه حشيش، ونسوان، وكانوا حا يدخلوا القتلة في الوسط...

تحول موقف سوسن تمامًا، وصبت كل غضبها على زوجها، وتركت البيت لتعود إلى منزلها، وهي توصي أخاها بألا يقف معه أو يساعده، وليحوله إلى النيابة مع المجرم الآخر لعله يبقى في السجن إلى آخر العمر.

تنفس الجميع الصعداء بعد خروج سوسن، وشعروا براحة شديدة حتى هناء التي كانت قد رضخت هي، وزوجها للأمر الواقع... اقتربت عواطف من ابنها، وحدثته هامسة ..

-هو كان فيه نسوان في الموضوع..

-يا حاجة فيه حشيش يبقي بالعقل فيه نسوان، ولا كنت أسيبها تفتري على اليتيمة الغلبانة.

نظرت أمه له نظرات تحمل كل المعاني، وشاركته في السعادة التي غمرته، فقد تبدل كل قلق عواطف على ابنها، وشعرت أنه أخيرًا عرف طريق السعادة، ووجد الرفيقة التي ستسير معه...

حقًا لقد كانت مختبئة في غرفتها لكن لم يلاحظ أحد اختفاءها، فقد شغلتهم أحداث اليوم، فلم يزعج أحد ليلى بالسؤال عنها، وهو ما أراحها، فلم تكن تريد أن يراها أي شخص حتى لا يلاحظ بكاءها، ولا أنها لا تستطيع النوم، ففضلت ألا تضيء النور، وظلت تبكي والظلام يحيطها من كل جانب...

قضى خالد ليلته ساهرًا هو الآخر، لكن كانت السعادة التي غمرته هي السبب، وظل طوال الليل يعد صور ما مر به من أحداث، ويتوقف كثيرًا عندما كانت ليلى بين أحضانه

«لقد اعترفت لها... آه... اعترفت لها... أجل اعترفت أنها أغلى إنسان عندي في الوجود كم كان صدري يضيق بهذا الاعتراف الذي حبسته بداخلي أيامًا، وأيامًا، وأخيرًا استطاع أن يفر من حصاري، ويفر معه قلبي ليسكن بجوار قلب ليلة، لكن هل كان قلبي معي طوال الفترة السابقة ؟! ما كل هذا التكبر... أأخدع نفسي لقد فر قلبي منذ شهور، وليلة وحدها هي التي تعرف أين وضعته بجوار قلبها أم رفضت الاحتفاظ به... لا...لا... ليلة ليست بهذه القسوة».

أثارت كلمة القسوة العديد من المخاوف لدى خالد هل يفاتح ليلى في أمرهما الآن، ويعترف لها صراحة بكل ما يشعر به أم يكتفي بما وصلها، ويواصل ما عزم عليه سابقًا، ولا يذكر لها شيئًا حتى النطق بالحكم وقتها ستصبح ذات إرادة حرة، وتستطيع أن تحدد مصيره قبل مصيرها، لكن أيمكن أن يكون هناك احتمال غير حب ليلى له...

نحى خالد مخاوفه، وعاد مرة أخرى لتذكر ليلى وهي بين يديه... فعانق وسادته، وغرق في النوم ليحلم بما يتمناه...

في الصباح كان وجه خالد مشرقًا مبتسمًا على عكس وجه ليلى الحزين... كان خالد هو أول من لاحظ ما بها، لكنه فسره بما يدور حولها من أحداث.

-طبيعي إنك تبقي متضايقة... النهاردة نيابة، وبكرة محكمة...

استمر خالد يطلق التعليقات المرحة على حال ليلى التي وصفها بالفارسة المنتصرة قاهرة المفسدين، لكن ليلى لم تعقب على تعليقاته، فلم تكن تمثل لها أي شيء سواء كان سلبيًا أو إيجابيًا... كان ذهنها شاردًا في إعادة تقييم كل ما مر بها من أحداث، وإعادة الحكم على تلك الأسرة التي ظنت إنها يمكن أن تتخذها عائلة لها...

الكل يرتدي الأقنعة.... إنهم حتى يتحدثون معها بلهجتها لهجة أهل القاهرة، وبينهم يتحدثون بلهجة مختلفة بلهجتهم... حقًا هي قريبة من لهجتها لكن هناك اختلاف... هناك قناع على اللسان، وقناع على الأفكار... وكيل بأكثر من مكيال...يسمحون لخالد بأن يطعمها، وهي تطعمه... تسير معه في الحديقة كل ليلة.... تنتظره... تسافر معه، أما سوزان ابنتهم لا يسمحون لها حتى بالحديث مع خطيبها دون رقابة...

«آه ألست ابنة «الخواجاية»، وسأظل هكذا لن يتغير الأمر.... لن أصبح ابنة هذه العائلة»

شعرت ليلى بخيبة الأمل في كل من حولها.... رأتهم، وقد تحولوا إلى مسخ بشري... لا ملامح لهم... انتحلت ليلى الأعذار لتترك مجلسهم،

ولحسن الحظ كان يومها حافل بالأحداث، فهي ستدلي بشهادتها في قضية القاتل المأجور كما أن عليها الاستعداد للشهادة في اليوم التالي أمام المحكمة...

غابت ليلى معظم الوقت عن البيت، ولم تجتمع مع أي واحد من أهله حتى في المساء لم تحاول الخروج للحديقة، لكن خالد طلبها بإلحاح... حاولت انتحال الأعذار، لكنها لم تستطع إلا أن تلبي طلب خالد...

نظرت ليلى إلى خالد، وهو يقف ينتظرها كعادته في الحديقة.... كانت تتأمل ملامحه، وهي تسأل نفسها .

«ترى أهي ملامحه الحقيقية أم تراها أحد الأقنعة التي دائمًا ما يرتدي إياها ؟!...وما هي يا ترى ملامحه الحقيقية ؟!»

لم يلاحظ خالد التغيرات التي طرأت على ليلى، فهناك أشياء كثيرة عليه أن يخبرها بها... كما أنه لم يرها طوال اليوم، فشعر بشوق جارف لرؤيتها... ما أن أقبلت حتى أسرع إليها وهو يمد لها يديه، لكنها ابتعدت عنه قليلًا...

بادرها خالد بالحديث عن الترتيبات التي أعدها لليوم التالي، ثم أكد على ضرورة الاستعداد لما ستقوله .

-الموضوع مش هين يا ليلة، وما تنسيش إنك الشاهدة الرئيسية، وأنا أعتقد إن النيابة حا تبدأ بك عشان من المؤكد إن الباقي حا يغير شهادته بعدك... طبعًا الجميع كان فاهم إنهم حا يتخلصوا منك، لكن الأمور انعكست، والكل حا يهرب من السفينة الغارقة، ويلتفوا حول الفارسة إللي فجرت قضية الفساد.

اندهشت ليلى من كلام خالد، فكيف له أن يعرف أنها هي التي فجرت قضية الفساد إنها لم تخبره بذلك... رأى خالد الدهشة في عيني ليلى، فرد على سؤال عينيها..

-ليلة إنت نسيتي إني دكتور في القانون...يعني مش حا أعرف شكل أي قضية ماشي إزاي انخفضت نبرات صوته، وتحدث بصوت رخيم.

-ويعني هو أنا مش حا أعرف ليلة بنت عمي...

اشتد ضيق ليلى من نظرات خالد لها... وكانت نبرات صوته تشعرها بأنه يحاصرها من كل جانب، فانطلقت التساؤلات من عينيها.

«لماذا يفعل خالد معي هكذا ؟!.... لماذا يحاصرني دائمًا؟! لماذا يجعلني غير قادرة على التفكير ؟!»

احتار خالد في تفسير نظرات ليلى له، فسألها في لهفة، وحنان:

-مالك يا ليلة ؟!... ما تخافيش أنا جنبك...

حاول خالد أن يمسك يد ليلى علها تجد الأمان كعادتها، لكنها أبعدت يدها عنه في نفور... تجاهل خالد الأمر، فقد كان على يقين من أن المحكمة هي السبب فيما ألم بليلى، فحاول أن يخفف الأمر عليها..

-ياله يا ستي نتدرب على إللي حا تقوليه بكرة لما ينادوا على الدكتورة ليلى أحمد القاضي.

نظرت له ليلى بدهشة.

-ليلى!!

-آه مش ده اسمك الرسمي...

-لكن إنت على طول بتقولي ليلة... والكل بيناديني زيك...

-آه... ما ده اسمك الحقيقي..

انطلقت آلاف الأسئلة من عيني ليلى، وتحولت إلى طفلة صغيرة تستفسر عما يحيرها بنظرات عينيها البريئة، فرد عليها خالد بابتسامة حنونة، وتحدث معها، وكأنه يقص عليها حكاية من الماضي البعيد.

-سبق، وحدثتك عن الطفل الصغير، وحكايته مع ابنة عمه...

-وأحلامه السبعة...

-جميل... تكملة الحكاية كان يا ما كان أن عمه وقتها لم يكن قد سجل ابنته، واستخرج لها شهادة ميلاد بسبب ظروف حادث والدتها... فلما جاء إلى البلد، وطرده والده طلب من أخيه المساعدة في أن يسجل ابنته ضمن مواليد قريتهم... وقتها كان الطفل الصغير يحمل الرضيعة التي كان وجهها كالبدر المنير وسط ليل حالك السواد اسمه شعرها... كان الطفل ينظر إلى وجهها، وإلى السماء، والقمر يتوسطها، فوجد الرضيعة رائعة الجمال مثل جمال تلك الليلة، فأقترح على عمه أن يسميها ليلة، ورغم أن العم كان قد أطلق على ابنته اسم آخر، لكن أمام إلحاح الطفل وافق عمه... لتصبحي أجمل ليلة في حياتي كلها...

غرقت ليلى في بحار كلمات خالد العذبة، واختفى من ذهنها كل شك في أمر خالد، ووجدت نفسها تمد يدها لتعانق يده... في هذه اللحظة رن جرس هاتفها... كانت تتوقع أن هناك تهديدات تنتظرها، لكن يا لهم من أغبياء أي تهديد يمكن أن يؤثر فيها، وهي واقفة بجوار خالد وسط قلعته الحصينة...

لم يكن الأمر تهديدات في تلك المرة... لقد كان وليد هو المتحدث... فاجأت ليلى مكالمته، وظلت للحظات لا تستوعب الموقف... كان خالد يراقبها، ويستمع إلى ما تقوله، ونيران الغيرة تأكله.

«من هذا الذي يحدثها، ولماذا يتصل بها اليوم ؟!... أبعد أن تنصل من رغبته في الارتباط بها يعود اليوم ليأخذ مكاني، ويحاول أن يكون هو فارسها الذي يحميها بدمائه.»

هدأت نيران خالد عندما رأى ليلى، فقد كانت ملامحها تدل على الاشمئزاز من المتحدث .

كان وليد يتحدث إليها بود زائد، واستطرد في كلامه عمَّا يكنه لها من مشاعر فياضة، وما ينتظرهما من مستقبل باهر، وليس عليها إلا أن تغير شهادتها، وبذلك تضمن الحب، والمال معًا...

لم تعلق ليلى على أي كلمة قالها، وليد، وظلت تستمع له، وهي صامتة، ثم أغلقت هاتفها دون أن تنطق بكلمة، ثم فتحت الهاتف، وأخرجت منه البطاقة، وقذفت بها بعيدًا... رفعت ليلى هامتها بشموخ، وتحد، وكأنها إحدى ملكات عصور النهضة، ولم تنظر إلى خالد، وتركته، وعادت إلى المنزل، فتبعها خالد دون أن ينطق بكلمة...

كانت ليلى تسير بخطوات ثابتة شامخة محاطة بحاشية من الكبرياء أذهلت الجميع، وجعلتهم يقفون واجمين، وهم يشاهدون هذه الأميرة الحقيقية التي تعيش وسطهم... أكملت ليلى طريقها إلى حجرتها بعد أن حيَّت الجميع مشيرة لهم بيدها، وهي واقفة على درج السلم... هنا صاحت الجدة:

-والله ما فيش فرق بينها، وبين أميرات العيلة المالكة... أنا شفتهم مرة على الطبيعة...

وجهت عواطف نظرات عتاب قاسية إلى خالد الذي فهم معناها... كان يريد أن يصرخ، ويحكي لوالدته عن كل ما حدث بينه، وبين ليلى، وأنه قد أعترف لها بأنها أغلى إنسان لديه، لكن لسانه تراجع، ووكل عينيه لتتحدثا إلى والدته مطالبتين إياها بالصبر، فمثل هذه القضايا لا تستغرق وقتًا طويلًا... إن هو إلا شهر أو شهران، وينتهي كل شيء، وتصبح الأميرة حرة من كل القيود... لكن أتراها وقتها ستختار الفارس الذي كان ساهرًا على حمايتها أم هناك أمراء كثيرون في انتظارها ؟؟؟!!!

ليس في وسع خالد سوى الانتظار... عل الغد يحمل له كل الخير، والسعادة .

(٢١)

استعد خالد للذهاب إلى المحكمة عظيم الاستعداد، فوضع خطة محكمة لتأمين الطريق،كما اهتم بشكله عظيم الاهتمام، فظهر بأحسن هيئة جعلت جدته تدعو له بأن يحرسه الله من كل عين، فهو كبشوات العصور السابقة، لكن خالد أصر على أن تدعو جدته لليلى، وأن يدعو لها كل من في البيت، وأسرع إلى غرفة مكتبه ليحضر سلاحه، فلا يمكن أن يذهب دون سلاح، وهو بصحبة فارسة الحق...

وأخيرًا هبطت ليلى الدرج، والجميع يتطلع إليها... كانت كأميرة خرجت لتوها من أحدى القصص الخيالية... جمال متوهج يشع ضياءً، وسحر أخاذ يخطف الأبصار، ويجعل الجميع يتجمد في مكانه، ولا يستطيع أن يفعل شيئًا سوى التطلع لهذه الفتاة الشامخة كالجبال...

حرصت ليلى على ارتداء ملابس أنيقة زادت من جمالها كما اهتمت بوضع المساحيق على وجهها، واعتنت بتصفيف شعرها الذي أطلقته لينسدل فوق كتفيها...

حيت ليلى الجميع، وهي ترفع يدها مرددة عبارات التحية، والكل يردد وراءها، وكأنهم مسحورين من هذه الجنية الطيبة، وأخيرًا أفاقت النساء من التعويذة السحرية، لكن ظل خالد ينظر إلى أميرته مشدوهًا... اقتربت

عواطف منه، وحاولت تنبيهه.

-خالد... خد بنت عمك للمحكمة، ورجعها بسرعة، والله يكون في عونك...

انتبه خالد.

-نعم ؟!

ردت عليه عواطف بنبرات فيها سخرية خفية.

-آه.... طبعًا حد يكون معاه كل ده، وما ندعلوش أن الله يكون في عونه.

شعر خالد بالخجل من تلميحات والدته، وأحس أن وجهه قد فضح ما بداخله، فأسرع بإلقاء الأوامر على الخفراء الذين سيستقلون سيارة خالد، أما هو، وليلى سيستقلان سيارة أخرى، وسيخرجان من باب المنزل الخلفي تحسبًا من احتمال وجود أي خطر على الطريق... عارضت ليلى هذه الترتيبات.

-يمكن يحصل أي حاجة وحشة لسيارتك، وإللي فيها...

هنا تحدث خفيرها بتلقائية، وصوت هادئ

-إحنا كلتنا فداكي يا دكتورة...

قاطعه خالد بحدة.

-إيه ده إنجر منك له، ونفذوا الأوامر... إيه هو إحنا على الترعة عشان الكلام الفارغ ده...

ازداد حنق ليلى على خالد من تعليقه السخيف... أهكذا يرى كل

تصرفاتها تتسم بالاستهتار، وموضع سخرية، فأمطرت خالد بسهام نارية أطلقتها عيناها... حاولت ليلى الاستطراد لكن توقفت عن الكلام عندما حضر حسان، وأصر على أن يشارك في تأمين ليلى، فكلفه خالد بأن يصطحب الخفراء في سيارته...

شعرت ليلى بأن حسان يريد أن يقدم اعتذارًا فعليًا عما قام به، لكنها لم تغير رأيها في العائلة كلها، وأسرعت تسبق خالد لمغادرة المنزل...

جلس خالد بجوار ليلى في السيارة، وهو يشعر بالخجل من غضب ليلى منه، فأناب قلبه ليحدثها ألا يسكن بين ضلوعها، فيحدثها عن نيران الغيرة التي يكتوي بها... حقًا هو لا يغير من الخفير، ولا يعتبره منافسًا له، لكن يكفي وجوده لفترات طويلة بالقرب من ليلته...يكفي أنه هو من كان معها وقت إلقاء القبض على القاتل المأجور... يكفي أنه هو من كان معها وقت ضرب جمال... لقد كان بجوارها يجلسان بالقرب من شاطئ الترعة ينعم بالحديث معها حتى لو كان حديث السيد للتابع ألا يكفي كل هذا ليشعل نار الغيرة في قلب خالد...فلماذا تغضب ليلى، ويظل وجهها عليه علامات الغضب الممزوجة بالاتهام ؟!

أحس خالد بكل ما بجيش في صدر ليلى... حاول في البداية أن يوهم نفسه بأنها قلقة بشأن المحكمة، لكن هيهات إنه يعرفها تمام المعرفة، فوجهها بالنسبة له كتاب مفتوح يقرأ كل ما كتب فيه، وها هي سطور الغضب تملؤه، لكن هل تمحوها كلمات الاعتذار، وهل الوقت يسمح للكلام في أي موضوع قد يؤثر عليها، ويوتر أعصابها ؟!

آثر خالد الصمت، لكنه لم يتحمل غضبها، فأدار جهاز التسجيل

بالسيارة، وكانت أغنية «هذه ليلتي» لأم كلثوم...ازدادت ليلى حنقًا عندما استمعت للأغنية، فها هو خالد يتزايد في التلاعب بمشاعرها... فرجعت برأسها للوراء، وأغمضت عينيها لتنام طوال الطريق...

كان خالد ينتهز الفرصة لينظر إلى ليلى بين الحين، والآخر، وهو يردد في نفسه :

«أترى من ألف قصة الجمال النائم كان قد رأى ليلة، وهي نائمة، أم ترى أن جمالها يفوق كل إبداع ؟!»

وأخيرًا وصلا بأمان إلى مبنى المحكمة، فاستيقظت ليلى بمجرد توقف السيارة... خرج خالد مسرعًا يحيط بليلى من كل صوب، وكأنه أصبح فريقًا كاملًا من الحرس... كان حسان، والخفراء قد سبقوهم، فانضموا لخالد لتجد ليلى نفسها وسط حراسة مشددة... أسرعت ليلى الخطى، وكأنها تأمر كل شيء بالسرعة، وتحققت إرادتها كاملة، فقد جرت المحاكمة بالسرعة التي أرادتها، وكما كان متوقعًا فقد قلبت شهادة ليلى الموازين، وأحرجت من تراخى في قول الحق فيما سبق، وأصبح ليس أمامه خيار آخر بعد أن رأى بعينيه كيف عجز أصحاب القضية عن النيل من ليلى، وكل ما قالوه عن قوتهم ليس له أي محل من الصحة، فلم يبق سوى الحق ليشهد به الجميع...

كان خالد يراقب ليلى، وهي تقف شامخة مرفوعة الرأس تدلي بشهادتها، وشريط كامل من الذكريات يتجسد أمامه ليرى ليلى طفلة صغيرة يحملها، ويهمس لها بأحلامه... وينتقل به الشريط ليتذكر أول مرة شاهدها عندما حضرت لهم... وتتابع الصور ليرى ليلى في البيت،

والأرض... وسط الأشجار... فوق الفرس... فارسة تشهر دائمًا سيف الحق...

بعد انتهاء جلسة المحكمة تملكت خالد فرحة غامرة كانت كافية لإسعاد الكون كله، فقد انتصرت فارسة الحق، وزال أغلب الخطر عنها، وحتى طلب استدعائها مرة أخرى للمحكمة، فهذا أمر قلما يحدث، وفي جميع الأحوال خرجت تهديدات ليلى من حسابات أصحاب القضية...

أمر خالد حسان، والخفراء بالعودة، واستقل هو وليلى سيارته، وانطلق خالد، ووجهه يتلألأ من السعادة... وضع خالد يده على رأس ليلى مداعبًا شعرها.

-انتصرنا يا أميرتي الجميلة...

ابتعدت ليلى عنه، ونظرت له بنفور... تحولت سعادة خالد إلى وجوم بالغ، وعجز لسانه عن الكلام لحظات، ثم بدأ يسترجع حصيلة ما لديه من مفردات.

-إيه يا ليلة... فيه إيه ؟!

ازداد حنق ليلى على خالد، فهو لا يكتفي بالتلاعب بمشاعرها بل يستهين بعقلها هو الآخر يا له من ظالم مستبد... تملك ليلى الغضب، فتحدثت بحدة، وصوت مرتفع.

-أولًا أنا اسمي ليلى...

استمر وجوم خالد، وتعجبه من التغيرات التي طرأت على ليلى.

-هو ده إللي مزعلك ؟!

ما إن سمعت ليلى كلماته عن الغضب حتى انفجرت كالبركان

-أنا مش زعلانة أنا عايزة أروح...

تعجب خالد من عصبية ليلى المفرطة.

-طب ما إحنا مروحين، لكن مش نقعد في أي مكان نستريح، وناكل حاجة المشوار لسه طويل لحد ما نوصل للبلد.

واصلت ليلى حديثها الغاضب:

-لا أنا مش رايحة البلد أنا عايزة أروح لبيتي في المعادي...

صدمت كلمات ليلى خالد أي صدمة، وأحس بالدنيا كلها تدور به حتى أنه كاد أن يفقد السيطرة على عجلة القيادة، وامتلأت رأسه بكل صرخات الغضب، فانفجر صائحًا:

-ليه ؟!... حصل إيه ؟!

ردت عليه ليلى بحدة، وانفعال ..

-ما حصلش حاجة... أنا عايزة أروح بيتي....

واصل خالد صياحه الذي بلغ حد الصراخ.

-مرة واحدة تقرري أنك تروحي، ولازم إللي في راسك يمشي، ومش مهم الناس إللي مستنياكي، وحا تموت من القلق عليكي، مش مهم المهم إللي في راسك يمشي.

لم ترد عليه ليلى، فاستمر خالد في صياحه معاتبًا إياها تارة، ومتهمًا إياها تارة أخرى، لكنها تمسكت برأيها..

-أنا مش رايحة البلد عندكم أنا حا أروح على بيتي...

اندفعت الدماء في رأس خالد، وكاد أن يصطدم بإحدى السيارات، فزعت ليلى مما يحدث وصاحت..

-حاسب !!

توقف خالد بالسيارة حتى تهدأ أعصابه، وحاول أن يكظم غيظه، ويخفض من نبرات صوته العالية...

-ليلة فيه حد زعلك ؟!... فيه حاجة ضايقتك ؟!

ظلت ليلى صامتة، ووجهها كله إصرار على ما قالته، وقررته، فعاد خالد إلى عصبيته، وصاح:

-راسك دي عايزة كسرها...

انطلق خالد بسيارته، واتجه إلى الطريق السريع المؤدي إلى المنيا... شعرت ليلى بالخوف مما يفعله خالد، وارتجفت كل أوصالها من هذا المستبد الذي يريد أن يفرض إرادته عليها بالقوة، فغمرت قطرات العرق جبينها...

لم يكن خالد بحاجة إلى النظر إلى ليلى ليدرك ما ألم بها، فأعطاها أحد المناديل الورقية لتجفف قطرات عرقها... قدم خالد لليلى المنديل دون أن ينظر لها... شعرت ليلى بالحرج تناولت منه المنديل، وجففت قطرات عرقها بعصبية، وحدة... كانت تحاول أن تجفف معها كل خوف أصابها...

قبل أن تواجه ليلى خالد بادرها، وتحدث معها بصوت خال من أي مشاعر، وكأنه يلقي عليها بيانًا عسكريًا.

-فيه حاجة لازم تشوفيها، وبعدين حا أوصلك لمحطة القطر، ولو كنت تعبانة ممكن نقضي الليلة في أي فندق في المنيا، والصبح أرجعك على بيتك....

ردت عليه ليلى بعصبية

-ما تتعبش نفسك، وحاجة إيه إللي حا أشوفها، وبعدين...

صمتت ليلى فقد خانتها الكلمات، وشعرت بالمرارة تملأ حلقها، وأحست بآلام مبرحة في صدرها حتى أنها كادت أن تصرخ من شدتها، فقد كان قلبها يصيح ثائرًا:

«لماذا يا خالد ؟! أبمنتهى البساطة تطردني من بين ضلوعك ؟! لا إنها صاحبتي التي استبدت برأيها، وأصرت على الرحيل، لكن حتى، وإن كانت قد أخطأت ما ذنبي لأعود مرة أخرى وحيدًا خائفًا أتخبط وسط الظلام كنت أجد الأمان عندك، فلا تدعني أرحل...

لا تجب أنت بل دع قلبك يجبني..»

تضامن قلب خالد مع قلب ليلى، وثار على صاحبه، وعلى ليلى هي الأخرى، فلماذا تطرده، وتوصد كل الأبواب في وجهه... لقد كان دائمًا ما يهيم بحبها، ويحاول أن يفتديها ، ويبعدها عن كل شر... لم يشغله شيئًا في الدنيا سوى حبها، وكانت كل أمانيه أن يسكن بجوار قلبها، لكنها هي، وصاحبه ماذا يفعلان ؟!.. من أعطاهما الحق في طرد قلبين من الجنة، والقذف بهما في الجحيم أي قسوة يتمتعان بها !!!

ظل خالد يقود السيارة، وهو صامت، وبجواره ليلى مغمضة العينين تحاول اصطناع النوم، والوقت يمر عليهما بطيئًا كأنه يأبى أن يمر...

والمسافات تطول، وتطول...

وأخيرًا أوقف خالد السيارة... شعرت ليلى بالتوتر يسيطر عليها، وبالخوف الشديد مما رأته... كان المكان على شاطئ النيل وسط منطقة زراعية، وهناك جزيرة تحيط بها الأشجار من كل جانب، ولا يستطيع أحد أن يرى ما بداخلها، ولا سبيل للوصول إليها سوى جسر من الخشب...

دعا خالد ليلى لمغادرة السيارة، وأشار لها بأن تسير معه، وعبر بها الجسر... ووسط الأشجار كان هناك مدخل الجزيرة... وكانت المفاجأة التي أذهلت ليلى، وجعلتها تشعر بالدوار، ولم تستطع أن تصدق نفسها، بل حسبت أنها تحلم، فلا يمكن أن يكون ما تراه حقيقة....

لم تستطع ليلى أن تتقدم خطوة واحدة، فمد خالد لها يده، وكأنها أميرة يدعوها فارسها لتتفقد حال مملكتها... أيقنت ليلى أنها لا تحلم، وأن ما تراه حقيقة، وها هي أمام الحديقة التي طالما حكى لها عنها والدها، وقبل أن تأخذها الحيرة بعيدًا أخبرها خالد بقصة الحديقة كاملة...

فبعد أن صفى والدها أملاكه في ميراث الجد اشترى هذه الجزيرة كاملة، وبنى ذلك الجسر ليجعل الجزيرة مختبئة بين الأشجار، وكان خالد هو الذي يرعى الحديقة، ويديرها حتى أثناء حياة والده...

تزايدت حيرة ليلى، وارتسمت على وجهها ألف علامة استفهام، فأسرع خالد ليزيل حيرتها... ويجيبها عن الأسئلة التي تحيرها :

-لما لقيتك ما تعرفيش حاجة عن الجنينة أيقنت إن عمي كان عايزك تاخدي ميراثك في العيلة الأول، وترجعي لجذورك عشان تتمسكي بالأرض بدل ما تقايضيها على مزرعة الفيوم...

-طب إنت بتقولي الكلام ده دلوقتي ليه ؟!

-أبدًا لما لقيت ما فيش فايدة، وإنت إخترتي تسيبينا بعد ما بقيتي في أمان، وإحنا مالناش عازة عندك...

قاطعته ليلى بحدة، وبدأت تتحدث بصوت مرتفع رغم أنه يمتلأ بالدموع التي حبستها ليلى في مقلتيها.

-دي وجهة نظرك تجاهي... إنت فاكر إني بقيت في بيت جدي علشان تحموني...

ظل خالد ينظر اليها صامتا...لكن عينيه كانتا تأمراها بأن تهدأ، فأذعنت ليلى لأمرهما، وتحدثت بصوت منخفض، لكنه لم يخلو من الدموع الحبيسة...

-أنا لما رضيت أقعد معاكم كنت فرحانة أن بقى عندي عيلة لأول مرة... كنت فرحانة، وأنا بأقيس الضغط لوزة، وأقرأ الفنجان لماما عواطف... وأذاكر للأولاد، وأرغي مع سوزان... حتى مشاكسات سوسن، وهناء كانت بتسعدني، لكن إنتم مش عايزني واحدة منكم... أنا على طول في نظركم بنت الخواجاية المندفعة إللي تصرفاتها غريبة عليكم إللي لازملها على الأقل سنة عشان تنال محبتكم...

نظر لها خالد بعتاب، وسألها بصوت هادئ.

-إحنا مين ؟!

وبحدة ردت عليه.

-إنتم كلكم... جدتي، وماما، وإخواتي البنات، وحتى إنت... إنت يا خالد... إنت...

لم تستطع ليلى مواصلة حديثها فقد خانتها الكلمات...

غمرها خالد بفيضان من الحب أنطلق من عينيه، وحدثها بصوت رخيم، وهو يقترب منها:

-بحبك...

تجمدت ليلى في مكانها، وكأن كل تعاويذ سحر الحب قد أصابتها... واصل خالد كلماته، وهو يقترب من ليلته أكثر، وأكثر، ويداعب بيده خصلات شعرها المتطايرة، يزيحها عن وجهها ليرى قمره المنير، ويهمس له:

-بحبك... بحبك... وإنت طفلة صغيرة ضمتها إلى قلبي، وإنت عروسة كبيرة إتمنيت تكون لي، وإنت فارسة رافعة سيف الحق، وإنت خايفة من الضلمة... بحبك، وإنت دكتورة عظيمة الكل يطيع أمرك، وبحبك، وإنت طفلة شقية تشاكس، وتشاغب... بحبك...عاشق متيم لكل نظرة من عنيكي... سعادتي في ضحكتك، وقلبي يخاصمني لو غيرتي زعلتك...

لم تستطع ليلى استيعاب ما يحدث، فكيف الخيال تحول لحقيقة، وكل ما اعتبرته وهما، وشكت فيه لم يكن سوى مشاعر فياضة... أهي في يقظة أم تراها هائمة في عالم الأحلام... صرخ قلبها من شدة الاضطراب، فأسرعت دقاته الخطى، فتبعتها ليلى لتفر بعيدا، وتحاول الخروج من الحديقة، لكنها توقفت حائرة لا تدرى أين مدخل هذا العالم السحري...

أقترب خالد منها بهدوء، وهمس لها :

-أنت أسيرتي الآن، والأشجار، والورود تحيطك من كل اتجاه، وليس

أمامك سوى ذراعي لترتمي بين أحضانهما، ودون أي مقاومة، وجدت ليلى نفسها بين ذراعي خالد تحتويها ضلوعه...

نظر خالد إلى ليلى، وذراعيه تطوقانها، وواصل حديثه الهامس :

-لقد أحببت قلبي عندما وقع في أسر هواك، وعشقت ضلوعي يوم أن احتوتك، ومتيم بالقمر لأنه يشبهك، وأكره عيني إن رأت غيرك... أحبك... أحبك...

رقص قلب ليلى فرحًا، وعزف لحن العشق على كل أوتار السعادة، انفرجت شفتا ليلى عن ابتسامة فرح، وهمستا :

-بحبك...

تجمعت كل قصائد العشق على شفتا خالد، فهمستا بكل كلمات الهوى لشفتي ليلى... وطار الحبيبان في سماء الأحلام، وبمكر طفولي تحدثت ليلى، وهي بين ذراعي خالد يغمرها بمشاعره الفياضة .

-طبعًا كده أنا من حقي أنك تحقق لي حلمين...

ابتسم لها خالد، فابتعدت عنه قليلًا، وخرجت من بين ذراعيه، وأخذت تتجول بنظرها في جميع أرجاء الحديقة، وانطلقت.

-أنا عايزة أعمل فرحي في الجنينة دى...

تهلل خالد فرحًا..

-تأمري، لكن بشرط نعمل الفرح الخميس الجاي... ترتيبات الفرح مش حا تاخد وقت، وكمان كل العيلة حا تشتغل بسرعة ده حلم الكل... وبعدين...

قاطعته ليلى، وسألته بمكر:

-فرح مين ؟!

وجم خالد من سؤال ليلى، لكنها لم تمهله، وواصلت كلامها ..

-ليه هو إنت فاكرني مين عشان تكلمني في الجواز...لا...لا... أنا من عيلة كبيرة قوي، وابن عمي هو العمدة...

عادت الابتسامة الصافية تملأ وجه خالد، ورد عليها بصوت يملأه المرح:

-ما أنا يا حبيبتي شربت معاه القهوة من يوم الإتنين...

نظرت له ليلى متسائلة، فأجابها

-إنت مش جيتي عندنا أول مرة يوم الحد... تاني يوم الصبح كلمت العمدة، واتفقنا على كل حاجة...

نظرت له ليلي بشراسة، وحدثته بغيظ طفولي..

-يا سلام !!...يعني الموضوع منتهي من شهور، وأنا بقى إيه ؟!... لا يا خالد أنا إللي لازم أوافق الأول، وأنا إللي لازم أحدد اليوم المناسب، وكمان أنا إللي...

قاطعها خالد ضاحكا..

-ليلة....كفاية مجادلة في كل حاجة... وبطلي راسك الناشفة إللي عايزة كسرها...

نظرت له ليلى باستعطاف لم يعتاده منها ..

-خالد فاضل أَخِرْ حلم.... خالد بلاش موضوع إنك عايز تكسر

راسي... أنا بخاف...

امتلأ وجه خالد بالضحكات، وأمسك يد ليلى، وضم رأسها إلى صدره ليدخل معها عالم الحكايات، وهو يداعب خصلات شعرها ..

-آه يا صغيرتي... لا تخافي من أي شيء، فمنذ أن رأيتك لأول مرة عندما جئت إليَّ لتعطيني ميراثي المجهول... منذ تلك اللحظة، وأنا غارق في بحر هواك، ولا هم لي سوى البقاء بجوارك... أن أرى الدنيا من خلال عينيك، وكم حلمت أن أخبئك بين ضلوعي لتأخذي مكان القلب، فأنت نبض حياتي، ومعك تتحقق كل الأحلام....

تمت